# حضارة مصر في العصر القبطي

تأليف
مراد كامل

الكتاب: حضارة مصر في العصر القبطي

الكاتب: مراد كامل

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

كامل، مراد

حضارة مصر في العصر القبطي / مراد كامل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ١٢٦ – ٩٩١– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٣٧٦٣ / ٢٠٢١

# حضارة مصر في العصر القبطي



# إهداء

**إلى الروح الصادقة، التي حفرت جمعية التوفيق القبطية، على نشر التراث القبطي، على نفقتها الخاصة.**

المؤلف

# مقدمة

دافع شعب مصر عن حضارته وثقافته التي ورثها، أمام التيارات الجارفة التي هددتها بالاكتساح، وصمد الشعب أمام الأحداث الجسام التي انتابته ورجت أركان حضارته.

وكانت تحدوه في ذلك روح وطنية خالصة، ولا غرابة في ذلك، فإن حضارة مصر وثقافتها مصرية صميمة نبعت من شعب مصري أصيل، له كيانه الخاص، وله شخصيته المميزة، ولقد أثرت حضارته في العالم، كما شارك الشعب المصري في تقدم الإنسانية.

فإلى هذه المشاركة تعزو إثبات وجودنا.

ومن هذه المشاركة وضحت شخصيتنا، وعلى هدى هذه المشاركة في الحضارة العالمية، تخطو إلى مشاركة أسمى منها، ولنذكر دومًا ما أدته مصر للعالم، وما ينتظره العالم منها من مشاركة فعالة.

# مدخل

في الشطر الثاني من حكم الرومان، أي من ديو قلديانوس إلى دخول العرب، تأثر تاريخ مصر بعاملين رئيسيين وهما: المسيحية والسياسة البيزنطية.

وسنقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الأباطرة العامة، من ديو قلديانوس إلى هرقل، ثم نتبعها بنظام الإدارة في مصر والنظام المالي والجيش والحالة الاقتصادية.

وسنعرض في الفصول الخمسة التي تلي المقمة الأوان المختلفة لحياة الشعب المصري من سياسة ولغوية وفكرية وفنية واجتماعية في هذا العصر، وسيتضح لنا من هذا العرض كفاح الشعب المصري للاحتفاظ بشخصيته وكيانه ضد الحاكم المغتصب.

وقد كان للإسكندرية الزعامة الدينية في الشرق المسيحي، وفي مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحي، وكانت مصر منذ فجر تاريخها الممعن في القدم أرضًا خصبة، بفضل نيلها وطبيعة أهلها الذين اتسموا بالمثابرة على العمل والسماحة والمسالمة، ولم يمنع هذا أن يعم البؤس البلاد في هذا العصر، وذلك بسبب فساد أداة الحكم واستغلال الحكام، مما دعا الشعب الذي كان يعيش في هذا الجو الفاسد أن يبغض حكامه ويحتقرهم وأن يتطلع إلى الاستقلال والحرية وحياة أفضل.

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغييرًا شاملًا في السياسة وفي الدين، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بشعوب الشرق، بعد أن كانت صلاتها الحضارية مقصورة على الغرب أو بعبارة أدق على الحضارة الإغريقية.

## من ديو قلديانوس إلى هرقل (٢٨٤ – ٦٤١)

### ديو قلديانوس (٢٨٤–٣٠٥)

تولى ديو قلديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجموعة من اللوائح والقوانين والنظم – التي تسير عليها سياسة الإمبراطورية – لا تتمشى وحاجة عصره، فحاول أن يعالج الموقف بإدخال تغييرات أساسية في سياسة الدولة، وذلك ليتفادى الانهيار المتوقع للإمبراطورية، وليمنع الاضطرابات التي كانت تسود الدولة عند موت الإمبراطور وتولي خليفة له.

أدخل ديو قلديانوس إصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة، فجعل من الإمبراطور شخصية مقدسة تؤدي لها فروض العبادة بمقتضى طقوس دقيقة مرسومة استمدها من تقاليد الشرق.

كما ركز الإمبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح يقبض على كل السلطة الإدارية، وشل سلطة السناتور وألغى وظيفة المستشار وجعل كل الولايات خاضعة للإمبراطور فلم تعد هناك ولايات خاضعة للسناتور، كما ألغى الامتيازات الممنوحة للولايات التي كانت من الأصل تخضع للإمبراطور، ثم أدمج الولايات في وحدات إدارية وركز كل إدارات الإمبراطورية في أيدي موظفين وإدارات تابعة مباشرة للإمبراطور، وفصل

السلطة المدنية عن السلطة العسكرية.

وحاول ديو قلديانوس أن يحل المسألتين اللتين كانت تتوقف عليهما سلامة الإمبراطورية، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثة العرش.

وكان ديو قلديانوس يعتقد أن الدفاع عن حدود إمبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن يتولى أمره إمبراطور واحد، وقد حمله ذلك على أن يشرك ماكسيميان معه في الحكم، وذلك في سنة ٢٨٦ وأسند إلى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق، أما وراثة العرش فلم يكن لها نظام متبع، وكانت المطامع في ارتقاء العرش من المشاكل التي تواجهها الإمبراطورية عند موت إمبراطور، وفي سنة ٢٩٣ قرر ديو قلديانوس أن يتولى الحكم إمبراطوران في نفس الوقت، أحدهما للشرق والآخر للغرب، ويحمل كل منهما لقب "أوغسطس" على أن يستعين كل منهما بشريك يكون وريثه في العرش ويحمل لقب "قيصر".

## من قسطنطين إلى يوستيانوس (٣٢٣ – ٥١٨)

اعترفت الدولة رسميًا بالمسيحية في عهد قسطنطين الذي هو فاتحة التاريخ البيزنطي، وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية، وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بخطى سريعة.

وأضفى قسطنطين على إصلاحات ديو قلديانوس الصبغة النهائية، حتى أصبح للإمبراطورية البيزنطية طابعها الخاص، وانحصرت السلطة الإدارية والحكومة في البلاط الإمبراطوري، وكان مركز الدولة، وأصبح الناس يخدمون الإمبراطور بعد أن كانوا يخدمون الدولة.

واعتلى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين إمبراطورًا، أهم ما يعنينا من أمرهم مناصرة كثير منهم للهراطقة ومناسبتهم الكنيسة المصرية عداء شديدًا بسبب وقوفها في وجه أولئك الهراطقة.

وكانت هذه الفترة مليئة بالقلاقل والاضطرابات لا استقرار فيها، فتارة يصير الأمر فيها لإمبراطور واحد، وتارة توزع السلطة بين إمبراطورين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب، ويرجع عدم الاستقرار إلى أمور مختلفة أهمها: أن القوي الحية للإمبراطورية كانت كلها في الشرق، وأن المسيحية تطورت في الشرق بطريقة تختلف عنها في الغرب، وأن هجمات البربر على الغرب كانت أشد أثرًا منها على الشرق.

## أسرة يوستنيانوس (٥١٨ – ٦١٠)

كان حكم يوستنيانوس تطورًا طبيعيًا وضروريًا في تاريخ الإمبراطورية، فقد ضحى أباطرة القرن الرابع بسلطانهم على الغرب في سبيل سلامة الشرق، ولكن يوستنيانوس أخذ يتطلع إلى الغرب منذ بداية حكمه، وساقته مطامعه إلى محاولة استعادة الماضي، واستنفد جهدًا كبيرًا ليبعث من جديد هذا الجزء الميت من الإمبراطورية، مما أدى إلى أنهاك قوي الجزء الحي.

وكان من جراء فكرته في استعادة مجد الإمبراطورية الرومانية، حروبه العديدة، فأمكنه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحرًا رومانيًا، ولكن سرعان ما اضطرته حروبه في الشرق إلى أن يكف عن الحروب، وأن يقوم بإنشاء سلسلة من التحصينات، جعلت من الإمبراطورية ميدانًا مجزًا.

وقد ظن يوستنيانوس أنه سيعيد تأسيس الإمبراطورية على أساس سليم، فعمد إلى وضع نظام من شأنه أن يجعل الرخاء يسود كما كان في روما أيام مجدها، وسلك في ذلك طرقًا، تتلخص في أعماله التشريعية وفي إصلاحاته الداخلية.

## أعماله التشريعية:

كانت روما في مقدمة البلاد التي عنيت بالتشريع بل تعتبر مؤسسة علم القانون، وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذي بني على سلطة الإمبراطورية المطلقة.

وقد أدركيوستنيانوس عظم الفائدة التي يمكن أن تعود على الإمبراطورية إذا جمع مصادر القانون الروماني الذي كان معمولا به عندئذ ونشرها على نحو يمكن تداوله والرجوع إليه، وقد نهض بهذا العبء عدد من أبرز فقهاء الرومان، ومنذ ذلك الوقت غدت هذه المجموعة من القوانين المرجع الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون في الإمبراطورية، بل أصبحت المصدر الذي استمد منه القانون المدني الحديث.

وقد أطلق على هذه المجموعة "مجموعة قوانين يوستنيانوس" وهي تنقسم إلى أربعة أجزاء:

١- مدونة يوستنيانوس وقد نشرت أولا في عام ٥٢٩، ثم روجعت ونشرت ثانية في عام ٥٣٤، وكانت عبارة عن مجموعة تشريعات الأباطرة التي كانت لا تزال نافذة المفعول.

٢- البندكت أو المجمل وقد نشر في عام ٥٣٣، وكان يتضمن مقتطفات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الروماني، ورتبت هذه المقتطفات بحيث تستكمل ما لم يرد في المدونة من أحكام القانون المدني.

٣- القوانين وكانت كتابا موجزا وضع خصيصا ليستخدمه طلبة القانون.

٤- المراسيم الجديدة التي أصدرها يوستنيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعددها ١٦٨ مرسومًا.

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية، وأما الجزء الأخير فكتب باليونانية.

## إصلاحاته الداخلية:

التفت يوستنيانوس لتحسين الحياة الداخلية في الإمبراطورية، فاتخذ عدة وسائل للإصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الإمبراطور مما أدى إلى قيام ثورة القسطنطينية نفسها سنة ٥٣٢،

فأصدر تشريعات لأجل إصلاح الوظائف الحكومية كان منها إلغاء الوظائف الزائدة على الحاجة، ورفع مرتبات الموظفين، وإعادة الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، واتخذ خطوات إيجابية من شأنها أن تجعل للموظفين بعض الاستقلال في الإدارة مع ربط الإدارات بالسلطة المركزية، وحد من امتيازات كبار الملاك الذين كانوا خطرًا داهمًا على الطبقة الوسطى، وعائقًا فعالا في تقدم الدولة ورفاهيتها.

ولكن كل هذه المحاولات الإصلاحية باءت بالفشل، والسبب في ذلك هو الإمبراطور نفسه لأنه كان في حاجة ملحة إلى المال لمواجهة النفقات الباهظة التي كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومنشآته المختلفة، فألح على وكلائه في جمع المال على أية صورة، وفرضت ضرائب جديدة، ثم غير العملة وجعل الموظفين مسئولين شخصيًا عن جمع الضرائب، فاتخذوا من جانبهم إجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب إرضاء للإمبراطور، فكان هو العامل الأول في هدم إصلاحاته.

أما سياسته الدينية فقد أصدر يوستنيانوس مراسيم سنتي ٥٢٧ و٥٢٨ ضد الهراطقة وأصحاب البدع، ثم أمر بإغلاق مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٩، وكان عصره نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفة، وعاش الهراطقة بالرغم من الاضطهادات، بل كان رؤساؤهم يسكنون القسطنطينية نفسها، وفشلت سياسته الدينية وكان سبب فشلها – على الأكثر – سياسة الغرب، هذه السياسة التي أنهكت قوى الإمبراطورية فلم تعد تحتمل هجمات العدو في شرقها، وهي التي

استنفدت مالية الدولة وأحبطت الإصلاح الإداري، وهي التي أضاعت الفرصة على الدولة في النهاية لتوحيد المسيحية في الشرق وهي في أشد الحاجة إلى ذلك.

## الحالة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس:

كانت حياة النساك والرهبان الذين يعيشون في صحاري مصر وفلسطين داعية لتشجيع الإمبراطور يوستنيانوس والإمبراطورة تيودورا للرهبنة عامة، فأخذت في الانتشار والتطور، وكان لهذا أثره في الحياة الاجتماعية، وكان هؤلاء الرهبان يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون بالتدريج في الحياة السياسية وفي حياة البلاط، وأخذ عددهم يزداد، وانهالت عليهم الوقفيات والهبات والتبرعات، وكانت معفاة من الضرائب في أغلب الأحيان، فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع لها امتيازات ولها أثرها في الحياة الاقتصادية.

وهناك خاصية أخرى كان لها أثرها في الحياة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس، فقد قام بأعمال إنشائية عديدة مثل تعبيد الطرق وإنشاء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد أنابيب المياه وبناء الكنائس والأديرة، وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة في حالة رخاء، ولكن سرعان ما اضطرته المحنة المالية – لما استنزفته هذه الأعمال من أموال باهظة – إلى وقفها بعد أن أثقلت الضرائب كاهل الشعب من جديد، أما تجارة الدولة فقد شجع يوستنيانوس بعض المراكز التجارية الأساسية ومنحها بعض الامتيازات فزاد من نشاطها، وكانت

مشكلة الإمبراطورية هي صلتها بالشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين، وكانت التجارة الشرقية تصل إلى الإمبراطورية، إما برًا عبر الطريق الشمالي الذي كان يمر بوسط أسيا فبحر قزوين فالبحر الأسود، وأما بحرًا عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق البحر الأحمر، ولما كان الفرس ينقلون جانبًا كبيرًا من التجارة الشرقية، فقد حاول يوستنيانوس أن يحول التجارة الشرقية، إما إلى الطريق الشمالي أو إلى طريق البحر الأحمر، وذلك من ناحية، ليتفادى وساطة الفرس ومغالاتهم في فرض الضرائب، ومن ناحية أخرى ليزيد نصيب الإمبراطورية من التجارة الشرقية، ولكن يوستنيانوس فشل في ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية.

## خلفاء يوستنيانوس (٥٦٥ – ٦١٠):

مات يوستنيانوس والدولة في حالة إفلاس وقد دعم البؤس أفراد الشعب، وارتاح الجميع لموته، ولكن خلفاءه لم يجدوا حلا للمشكلة المالية التي ترتبط بها الإدارة الداخلية برباط وثيق، وقامت معارضة قوية ضد سلطة الإمبراطور المطلقة، كما نشأ خلاف شديد بين البابا جريجوريوس وبين بطريرك القسطنطينية، كل هذا والعدو لم يكف لحظة عن مهاجمة الإمبراطورية.

## هرقل (٦١٠ – ٦٤١)

كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطي حلكة، فقد كان عصر أزمة خطيرة وضح فيها أن كيان الإمبراطورية أصبح في مهب الريح.

تطرق الركود إلى الحضارة البيزنطية في القرن السابع فلم يظهر في هذا القرن كتاب أو مؤرخون أو قام أحد بعمل إنشائي ذي بال، وعم الخوف الناس في هذا القرن وانتشرت فيه الخرافات. ولم يكن هذا كله ليدل على سقوط الدولة النهائي بل أظهر أن الأزمة متأصلة وأن على الإمبراطورية أن تتفاداها بمحاولة تغيير اتجاهاتها، وكان السبب الأول في هذه الأزمة هو محاولة يوستنيانوس الفاشلة في إعادة الروح الرومانية إلى الإمبراطورية، وتوحيد الشرق والغرب.

ولم يبقى أمام الدولة إلا أن تخضع للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية والدينية والإدارية، فتغيير اتجاهها تغيرًا واضحًا، وأصبحت إمبراطورية يونانية شرقية بعد أن كانت إمبراطورية رومانية، وقد مكنها هذا الوضع من أن تحافظ على ما تبقى لها بعد استيلاء العرب على أهم أقاليمها، واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان، وكتب للإمبراطورية البيزنطية البقاء حتى القرن الخامس عشر.

# النظام الإداري والمالي ونظام الجيش والحالة الاقتصادية في مصر في العصر البيزنطي

## النظام الإداري:

عندما اعتلى ديو قلديانوس العرش كان أول ما اتجه إليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الإداري في كل أنحاء الإمبراطورية، ولذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها إلى ثلاث مقاطعات: هي مصر الجوبيترية ومصر الهرقلية وطيبة، ويحتمل أن هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التي كانت موجودة في الشطر الأول من العصر الروماني، وفي عهد قسطنطين الثاني تكونت في عام ٣٤١ مقاطعة رابعة "الأغسطمنية" من الأقاليم الشرقية في المقاطعتين الأولى والثانية وفي عهد ثيودو سيرس الأول أضيفت ليبيا إلى مصر فأصبحت المقاطعات خمسا، وحوالي أواخر القرن الخامس غير اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأصبحتا على التعاقب مصر وأركاديا.

ولما كان ديو قلديانوس وخلفاؤه حتى يوستنيانوس يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية وضع على رأس السلطة المدنية في كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يهيمن على شئون الإدارة والمالية والقضاء وأسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل، وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم مباشرة، أما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم في مقاطعة ويخضع للحاكم العام الذي كان

بدوره يخضع "لحاكم أو دوق الشرق" وعندما ضمت ليبيا إلى مصر منح الحاكم العالم لقبا ممتازًا وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص.

وقد تبع تقسيم البلاد إلى مقاطعات إعادة تنظيم الإدارة المحلية في أوائل القرن الرابع، فلم يعد هناك وجود عملي للمديريات فإنها قسمت إلى أقاليم أصبحت هي الوحدات الفعلية في الإدارة المحلية، وترتب على ذلك بطبيعة الحال إلغاء منصب المدير أو القائد وكذلك إلغاء منصب الكاتب الملكي، وكان أهم الحكام المحليين مراقب جمع الضرائب (إكساكتور) وإليه انتقلت اختصاصات القائد في الشئون المالية، أما اختصاصات القائد المدنية فأنها انتقلت إلى حاكم آخر (لوجستيس) كان في الأصل يمثل السلطة المركزية، لكنه أصبح حاكما محليا دائما يتمتع بنفوذ في الأقاليم والمدن على السواء، وآلت إليه اختصاصات حكام المدينة القدماء فزالوا بالتدريج، وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم (لوجستيس) حاكم آخر (ديفنسور) وقد ظلت مجالس الشورى قائمة، وألقيت عليها المسئولية كاملة عن الإدارة العامة والإدارة المالية، وغدت عواصم الديريات بلديات على النمط الروماني تتمتع بحكم ذاتي، ويدخل في نطاق كل منها منطقة ريفية.

وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لعادات وقوانين الولايات الأخرى في الإمبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية، وقد كان من آثار الرغبة في التوحيد والتبسيط أن اعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى في الولايات التي كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر، ولكنه لم يكن لهذا القرار أثر فعال في مصر،

فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والإدارات الحكومية، وكانت القرارات العامة تصدر بها، وربما كان الأثر الوحيد لهذا القرار أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر في إطار لاتيني أي أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية، وقد يكتب الحاكم ملاحظاته باللاتينية، أما أقوال الطرفين والشهود وأحكام القضاة فظلت تكتب باليونانية.

وكذلك غيرت طريقة تأريخ الوثائق القانونية فاستبدلت بسنوات حكم الإمبراطور سنوات القناصل مع ذكر موقع العام من دورة تقدير الضرائب، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عامًا، وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغيت القنصلية في عصر يوستنيانوس وأعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الإمبراطور.

لم يكد يوستنيانوس يعتلي العرش حتى ادخل تعديلين على نظام الإدارة في مصر، قضى أحدهما على اعتبار مصر وحدة إدارية واحدة، إذ أن هذا الإمبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الأولى، وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الأخرى، وجعلهم جميعًا خاضعين لدوق الشرق، أما التعديل الآخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وإسنادهما معًا إلى حكام المقاطعات فأصبح كل منهم في مقاطعته رئيس الإدارة والقضاء والمالية، لكن حاكم المقاطعة الأولى هو الذي كان يجمع في الإسكندرية كل ضرائب مصر نوعًا ونقدًا، ثم يرسلها إلى بيزنطة.

وكانت سلطة حكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجئون إلى القسطنطينية لتمدهم بالجند في حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية، وكان هؤلاء الحكام في أول أمرهم أجانب، ولكن رأى الأباطرة فيما بعد أن يختاروهم من بين اليونان المقيمين في مصر، وأقر هذا التصرف يوستين الثاني سنة ٥٦٩، وكان الإمبراطور يقر تعيين الحاكم الذي يرشحه الأساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد.

## الجيش:

منذ قرر ديو قلديانوسفصل السلطتين المدنية والعسكرية، لم يعد الجيش خاضعا لحاكم مصر العام فقد أسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل، وعندما ضمت ليبيا إلى مصر، وبذلك أصبح عدد المقاطعات خمسا، قسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص، وعندما عدل يوسنيانوس عن فكرة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك إلى توحيد قيادة الجيش إنما إلى تقسيمه خمس وحدات بعدد المقاطعات وخضوع مل وحدة منها لإمرة حاكم المقاطعة، وكان حكام المقاطعات يخضعون لقائد الشرق الذي كان مقره القسطنطينية.

وسرعان ما تفاقمت الأحوال لأن واجبات الحاكم المدنية أبعدته عن حياة الجيش وتبعا لذلك عن متابعة تطور الفنون الحربية، ولم يزد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندي، وزعوا على المراكز الحربية المختلفة على الحدود وفي الداخل ثم في المدن الكبرى، وكان الوجه البحري محصنا تحصينا قويا في الزوايا الثلاث للدلتا، في الفر ما شرقا

والإسكندرية غربًا وفي بابليون "مصر القديمة" حيث كانت بها حلمية كبيرة منذ الفتح الروماني.

وفي الوجه القبلي أنشئت على طول الوادي مراكز حربية في المواقع الهامة مثل قفط، وأسوان.

والواقع أن الجيش في مصر في العصر البيزنطي كان جيشا هزيلا يقوده رؤساء غير أكفاء، ويتكون من جنود مرتزقة لا يتصفون بأية صفة عسكرية، وكان واجبهم هو قمع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أي أن عملهم كان قاصرًا على عمل رجال الشرطة، وقد أصبح للجندي حق الزواج واتخاذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته في الجيش.

### النظام المالي:

لما كانت– مثل روما– تستهدف ابتزاز ثروة مصر، فإن الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطي عما كانت عليه من قبل، بل ازدادت باطراد، فساءت حال الناس وأصبح جمع الضرائب مهمة شاقة، ولم يتورع الموظفون عن استخدام مختلف ضروب القسوة لجمع الضرائب، ولذلك أخذ الناس في الالتجاء إلى الصحراء هربا من المعاملة القاسية التي كان يعامل بها كل من تأخر في دفع الضريبة، فقد كانت توقع عليه الغرامات والضرائب الإضافية، ثم تصادر أملاكه ويزج به في السجن، وويل لمن حاول المقاومة.

وكانت أكثر الالتزامات تقع على عاتق صغار الملاك الذين ازداد عددهم في العصر الروماني إلى أن اضطرهم جور الحكومة إلى النزول عن أراضيهم لبعض جيرانهم الأثرياء ذوي النفوذ، فأخذت طبقة صغار الملاك تختفي تدريجيًا خلال القرن الخامس حتى لم يعد لها وجود في بداية القرن السادس، ولم ينافس هؤلاء السادة إلا الأديرة التي أخذت تضيف باستمرار أملاكا جديدة إلى ممتلكاتها، وأصبحت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديرة التي تمتعت بإعفاء أملاكها من الضرائب، وازدادت تدريجيًا الضياع الواسعة، فأصبح معظم أراضي الامتلاك الخاص وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي.

## الحالة الاقتصادية:

كان قوام ثروة مصر حاصلاتها الزراعية وأهمها الحبوب والكروم والزيتون والنخيل والمواشي، وكان الجزء الأكبر من هذه الحاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض عن الحاجة إلى خارج البلاد.

وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الخزفية والعاجية والزجاجية وبخاصة المنسوجات.

كما عرفت مصر بصناعة أوراق البردي التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي، وذخرت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها، ولم يلتفت الحكام البيزنطيون إلى استغلال المناجم في مصر، ولكنهم اكتفوا

باستخراج المرمر والبازلت والجرانيت لتصديره.

وكان لأصحاب كل حرفة في مصر نقابة، تخضع لموظف مسئول عليه مراقبة الأسعار وتحصيل الضرائب، وكانت هناك أسواق كبيرة سنوية، وأسواق أسبوعية في القرى لبيع المحصولات والمنتجات.

وكانت مصر من الناحية التجارية هي الطريق الذي يتوسط الشرق الأقصى والغرب، وكانت السفن تأتي من الصين والهند مارة بباب المندب محملة بالأفاويه والأخشاب والحرائر والأواني الخزفية، فتخترق البحر الأحمر ثم ترسو في الموانئ البيزنطية التي ورثتها بيزنطة عن البطالمة، وكانت أكثر البضائع تفرغ في منطقة القصير، ومن ثم تحملها القوافل إلى قفط، ومنها تشحن في مراكب تقطع المسافة بين قفط والإسكندرية في أثنى عشر يومًا، وكانت البضائع الأفريقية تسير في هذا الطريق قادمة من عدول – ميناء مملكة أكسوم الأثيوبية – وتتضمن الزمرد من بلاد البيلمين، والعاج من أثيوبيا، والأنبوس من أواسط أفريقيا، والذهب من المنطقة التي أطلق عليها الرحالة كوزماس اسم ساسو، ومنذ القرن السادس الميلادي اضطر التجار أن يسلكوا طريقًا آخر لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات البيلمين، فكانت البضائع تحمل في البحر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم تتجه غربًا في القناة التي كانت تصل السويس ببابيلون (تقابل الآن ترعة الإسماعلية)، وكانت البضائع تحمل من بابيلون إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط عن طريق النيل، وفي القرن السابع أصبحت قناة بابيلون غير صالحة للملاحة.

وكانت حاصلات بلاد ما بين النهرين وفلسطين تحملها القوافل في طريق يصل إلى غزة فالفرما، وهذا هو الطريق الذي أسماه الفراعنة "طريق حورس" وكانت القوافل تمر بمنطقة قريبة من القنطرة الحالية لتصل إلى بلبيس فأون (هليوبوليس) ومنها إلى الإسكندرية، وكانت البضائع تنقل إما على المراكب في فروع الدلتا، وإما في قوافل من جمال وحمير، ولم تستخدم الخيل لأنها كانت مخصصة للجيش منذ العصر الروماني.

كانت التجارة في العصر الروماني مزدهرة في مصر، ولكنها أخذت تتعثر في العصر البيزنطي، فموانئ البحر الأحمر ما فتئت أهميتها تتضاءل، حتى لم يبق على البحر إلا ميناء القلزم، وذلك بسبب منافسة الفرس الشديدة التي أفضت إلى تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية إلى الخليج الفارسي، وقد حدا ذلك بالإمبراطور يوستنيانوس إلى العمل على التخلص من وساطة الفرس في التجارة الشرقية وإعادة النشاط التجاري في البحر الأحمر إلى سابق عهده، لكنه لم يصب في ذلك نجاحًا مذكورًا.

وفي عصر يوستنيانوس قام كوزماس التاجر الإسكندري برحلة في البحر الأحمر والخليج الفارسي، وزار أثيوبيا والساحل الشرقي لأفريقيا حتى وصل زنجبار، ثم عاد إلى مصر من رحلته هذه، وعكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته ومشاهداته القيمة في كتابه المسمى "الطوبوغرافية المسيحية"، وكانت مصر محط أنظار رجال الفكر في العالم فتوافدوا إليها لزيارة آثارها، ولمشاهدة الحياة الديرية المصرية،

ولتلقي العلم في مدارسها الشهيرة في ذلك العصر، نذكر منهم أسيوي القرطبي، وجريجو ريوس النزيانزي، وصديقه باسليوس، وأوسبيوس، والقديس هيرونيموس (جيروم)، وبولس الأوروسي، وبطرس الإيبيري، وبلاديوس، وروفينوس، وكاسيانوس.

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها– كما نراها اليوم– بحقولها النضرة في الدلتا تخترقها القنوات وفروع النيل، كما شاهدوا الوجه القبلي وقد حددت الصحراء من منطقته المزروعة، وكانت القرى– كما كانت عليه في العصر الفرعوني– لم تتطرق إليها الحضارة الإغريقية، وكانت مصر تعج بالأديرة التي تضم بين جدرانها مئات من الرهبان.

وقد تدهورت الحال في مصر وحاول الأباطرة عبثًا إنعاشها بشتى الطرق الإدارية فكان الحكام على جانب كبير من الضعف، ولا هم لهم إلا جمع الضرائب، وإرضاء الموظفين، وعم البؤس الفلاحين فاضطروا منذ القرن السادس أن يلتجئوا إلى كبار الملاك لحمايتهم، فأضاعوا أملاكهم وحريتهم، وكان في ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التي هي كيان اقتصاد الدولة المنظمة وقوام حياتها الاجتماعية، وازداد عدد كبار الملاك، بالرغم من محاولات الأباطرة المتعددة في منع هذا الازدياد والحد من تفاقم سلطانهم، وتكونت الإقطاعيات مما كان له أكبر الأثر في تدهور أحوال البلاد.

كان إنهاك الشعب بالضرائب مصدرًا من مصادر شقائه، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المستمرة في إرهاقه ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه، وكانت مصر في نظر الأباطرة حقلًا كبيرًا ينتج الحبوب فاستغلوها كما لو كانت مواردها لا تنتهي، واستغلوا أهلها كما لو كانوا منجمًا من ذهب لا ينضب معينه، ولم يهمهم أمر رخاء وادي النيل، كما لم يهمهم أمر الأمن في الأرياف، ولا الفاقة والقحط والجوع الذي كان يجتاحهم بين وقت وآخر.

وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم وبتصرف موظفيهم، وكان يوستنيانوس أول من أصدر مرسومًا (المرسوم الثالث عشر) يشكو فيه من الوسائل التي يتخذها الموظفون ومن إهمالهم في ترميم المنشآت العامة، وحاول أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من القمح لفقراء الإسكندرية، وكان لم يصرف لهم أي شيء منذ أيام ديو قلديانوس.

ولم نسمع طوال الحكم البيزنطي أن أحد أبناء الشعب النابهين ظهر لينقذ البلاد من براثن الاستعمار الأجنبي، أو أن يحد من نشاطهم الهدام، أو يطال بأحقيته في الحكم.

كان البطريرك – وقد سلمه الشعب قيادته – يمنعه مركزه الديني وكرامته ووطنيته من الخضوع لإرادة الأباطرة، ولكنه كان مضطرًا لمسالمتهم.

وكان من أهم أسباب انهيار الإمبراطورية مقاومة الشعب المستمرة في تأدية الضرائب المطلوبة، فكان يتهرب من دفعها، ويترك أراضيه، وصناعته، ويفضل أن يجلب على نفسه الخراب على أن يدفع الضرائب، وكانت المعاملة الفظة التي يلاقيها من جامعي الضرائب تضطره إلى دخول الدير أو الانطواء تحت حماية كبار الملاك.

وشل هذا حركة الدولة المالية، وزاد الطين بلة أن رجال الدين والرهبان أثقلوا كاهل الميزانية فضلا عن أنهم كانوا لا يدفعون شيئًا للدولة.

وكان لسخط الشعب وثوراته وعدم استتباب الأمن في الأقاليم، والاضطرابات في العاصمة، والاضطهادات ضد الوثنيين واليهود، أثرها الفعال في القضاء على التجارة والصناعة، وذلك بالرغم من طبيعة الشعب في حب العمل.

كانت هذه الأحوال كلها باعثًا للمصريين على الترحيب بالعرب، يحدوهم الأمل في أن يتمتعوا بحياة رخاء وطمأنينة.

# الفصل الأَول

# الحياة السياسية

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول الميلادي، في وقت كانت فيه أفكار الناس حائرة مضطربة بين عشرات المعبودات التي قدمتها الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالإضافة إلى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى، واستطاعت المسيحية أن تتغلغل في روح المصري، بقدر ما كان مستعدًا لقبولها، بما ورثه من ممهدات لذلك في ديانته المصرية القديمة.

وقد انتشرت المسيحية في مصر انتشارًا سريعًا، واستمرت في النمو حتى قضت نهائيًا على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يتبق من اليهود سوى طائفة ضئيلة لا أهمية لها.

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة، وإنما تم بعد صراع جبار كان له ميدانان: أولهما الميدان الفكري وقد قام بالدور الهام فيه مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وعلماء المسيحين وفلاسفتهم، أما الميدان الآخر فكان ساحة الاستشهاد، وقد بدأ عمليًا بهجوم الوثنيين سنة ٦٨م على كنيسة الأقباط شرقي الإسكندرية وقتلهم القديس مرقص الرسول بعد أن جروه بالحبال في شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه.

وكان النزاع في أولى صوره نزاعًا بين دينين: المسيحية والوثنية، ولكن

ما أن نمت المسيحية في مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصري كله تقريبًا، وظل الحكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان في نفس الوقت صراعًا بين شعب وحاكمه، أو بين أبناء وطن ومستعمر به، وهكذا تركز الشعور القومي وتوحد، وأخذ أقباط مصر يتمسكون بقوميتهم كراهة في كل ما هو أجنبي عنهم، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التي قادها الأنبا شنودة (القرن الرابع الميلادي) لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة، ورفض أدبيات اليونان وثقافاتهم.

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادي ولم ينته إلا بدخول العرب، وصار أباطرة الرومان أعداء سياسيين للشعب المصري، كما كانوا له في نفس الوقت أعداء دينيين طوال العصر الروماني، واستحكم العداء حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون إلى المذهب المخالف لمذهب مسيحي مصر، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهادًا عنيفًا، كذلك اضطهدت بنفس العنف من أباطرة الرومان المسيحيين، ولا يستثنى من ذلك إلا عدد ضئيل جدًا من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهي لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الروماني من جديد.

ولكي تتضح لنا حلقات النزاع يمكن أن نقسمه إلى ثلاث فترات مميزة وهي:

(ا) فتـرة الصـراع مـع أبـاطرة الرومـان الـوثنيين إلـى سـنة ٣١٣م
(ب) فترة الصـراع مع الأبـاطرة المناصـرين للهراطقـة من سـنة ٣١٣ إلى سنة ٤٥١م

(ج) فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما من سنة ٤٥١م – سنة ٦٤١م.

## ا- الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأبـاطرة الوثنيون ينظرون إلى المسيحيين عامة كمصدر خطر علـيهم، فاضـطهد وهـم أينمـا وجـدوا، ولكـن الاضـطهادات التـي حلـت بمسيحي مصر كانت أبشع قسوة وأكثر عددًا، لما اتصف به الأقباط من الصـلابة والثبـات علـى إيمـانهم، وقـد شعر الأبـاطرة وولاتهـم أنهـم أمـام شـعب شـجاع متمسـك بدينـه، لا تثنيـه الإغـراءات وطـرق الاسـتمالة المتنوعة، فاستخدموا معه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصـلب وسـلخ ونشـر ورجـم وتقطيـع أعضـاء وتهشـيم أسـنان وضـرب بالسيف وإلقاء إلى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة.

ومع ذلك لم تجد كل هذه الوسائل في إضعافهم، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم إلى الولاة مجاهرين بمسحيتهم، حتى أن الأنبا أنطونيوس الراهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى إلى الإسكندرية وهو شيخ في حوالي السبعين من عمره لينال شرف الاستشهاد، وتطور الأمر بالولاة والأباطرة، فبعد أن كانوا يعمدون إلى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدنًا بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الآلاف.

وأشهر الاضطهادات التي مرت بالمسيحية في مصر اضطهادات تراجان سنة ٩٨م، وسبتيموس سيفروس سنة ١٩٣م، ودكيوس سنة ٢٤٩م، وفاليريان سنة ٢٥٤م، ولكن أعنفها جميعًا كانت المذابح التي أنزلها ديو قلديانوس بالمصريين وكأنه قد جعل هدفه أن يفنيهم إفناء، ولذلك فإن الكنيسة القبطية نجعل بدء تقويمها سنة ٢٨٤م وهي السنة التي تولى فيها هذا الإمبراطور حكم الإمبراطورية الرومانية، ويسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء.

وقد قتل في حركة الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها، وتعطلت مدرسة الديدا سكالية اللاهوتية في الإسكندرية مدة من الزمن، وأحرقت الكنائس والكتب المقدسة، وفاضت الطرقات بالدماء، ومع ذلك صمد المصريون صمودًا عنيدًا عجيبًا ولم يرضخوا للأباطرة الرومانيين، بل كان عدد المؤمنين ينمو باطراد، وكثيرون كانوا ينضمون إلى المسيحية متأثرين بشجاعة المسيحين واستهانتهم بالموت في سبيل عقيدتهم.

ولما وجد الأباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة، وأن المسيحيين قد سرت فيهم موجة طاغية من "شهوة الاستشهاد" حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثنيتهم ولعن أصنامهم لكي ينالوا إكليل الشهادة على أيديهم، نقول لما لمس الأباطرة ذلك بئسوا أخيرًا واضطروا إلى وقف هذه المذابح البشرية لعدم جدواها، ولأنها خلقت عوامل خراب في أجزاء الإمبراطورية وأدت إلى تعطيل مصادر الإيراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة.

والكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول، وكان السابع عشر في عداد البطاركة، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي، وإنما لأن قتله كان ختاما لحركات المذابح العامة التي استشهد فيها آلاف المسيحيين، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الإسكندرية، ولما قبض على هذا البطريرك وطرح في السجن التف الشعب القبطي حول السجن ليمنع الجنود من إخراجه ليقتل، ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيه الجنود سيوفهم من أجل حماية شخصه فسلم نفسه سرًا للجنود بأن طلب من القائد أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون، فتم ذلك وسلم رأسه للجند فقطعوه، وكان ذلك سنة ٣١١م، ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك إلا بعد انصراف الجند.

فـي كـل ذلـك ضـرب الشـعب المصـري وبطاركتـه أروع المثـل فـي الاستشهاد، وكـان البطاركة وأساتذة المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثًا للناس على الاستشهاد وتثبيتًا لهم في دينهم، وكان أفراد الشـعب يشـجعون بعضـهم بعضًـا فـي سـاحات الاستشـهاد، ويـزورون المقبوض عليهم في السجون، ويقفون إلى جوارهم أثناء المحاكمات، ويحملون أجسادهم ليدفنوها، كل ذلك في غير خوف أو تردد، وكان الشهداء أنفسهم يقابلون الموت في فرح، وكان الكثيرون منهم يترنمون في بهجة خلال إقامتهم في السجون أو أثناء سيرهم في الطريق إلى ساحة الاستشهاد.

وأخيرًا أوقف الأباطرة هذه المذابح، ولم يلبثوا أن اعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حق ممارسة عباداتهم دون التعرض لهم، وقد قرر ذلك الإمبراطور قسطنطين وهو الذي اعتنق المسيحية، وفتح بابها أمـام بـاقي الأبـاطرة، وهكـذا انتهـى علـى يديـه عصـر اضـطهاد الوثنيـة للمسيحية، ولم يبق من الوثنية في مصر سوى قلة ضئيلة ذابت بمرور الزمن.

## ب- الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة

هذه الفترة من تاريخ مصر هي فترة آلام ومجد، وجه فيها المصريون دفة الفكر المسيحي وقادوا مسيحي العالم في المعرفة اللاهوتية، وليس أدل على ذلك من أن قانون الإيمان المسيحي الذي تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أثناسيوس الإسكندري.

وفي خلال هذه الفترة وقف بطاركة الإسكندرية حفاظًا على الإيمان القويم، فقاوموا الهرطقات وهي الخرافات الدخيلة على الإيمان أو البدع الخارجة على الدين، وحرموا الهراطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالم فساد معتقداتهم.

واشتهر اسم الإسكندرية في العالم كله، واعترفت بها المجامع العالمية (المسكونية) كنيسة من الكنائس الخمس الكبرى وهي كنائس روما والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وأورشليم، وإذا كانت لروما أهميتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية الغربية فإن الإسكندرية كانت أولى كنائس العالم في التعليم المسيحي وفهم الدين وشرح قواعده، وليس أدل على قوة الإسكندرية من أن بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة المدينة العظمى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية بعد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون في الدين وهراطقة، وهؤلاء البطاركة الذين حرموا هم: مقدونيوس الذي حرمه تيموثاوس، ونسطور الذي حرمه كيرلس، وفلابيانوس الذي حرمه ديسقورس، ووافقت المجامع على هذه الحروم، وصدق عليها الأباطرة، كما حرموا من قبل أريوس في مجمع نيقيه، وكان لهم في المجامع المسكونية مركزهم البارز فكانوا إما رؤساءها وإما العنصر القوي الوجه لها.

وقد اشتهر بطاركة الإسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان، فبينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأقوياء حين ناصرها الأباطرة بقوتهم، وبينما رضخ لها بعض الأساقفة تحت ضغط

التعذيب عن ضعف لا عن اقتناع، نرى أن أساقفة الإسكندرية لم يميلوا قيد أنملة عن الإيمان المستقيم متحملين النفي والعزل وألوانًا شتى من الاضطهاد ووقفوا في وجه الأباطرة وقفات مجيدة مشرفة، ولولاهم لصار العالم كله أريوسيًا فاسد العقيدة.

وهذه المقاومة التي ناوأت بها مصر الأباطرة والولاة الرومان، لم تكن مجرد حركات فردية من البطاركة، وإنما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة، كما كانت أحيانًا حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قيادتهم، وكان الشعب المصري حريصًا أشد الحرص على إيمانه، ويرفض تدخل الرومان في معتقداته، من أجل هذا استطاع أن يرغم الأباطرة أحيانا على الإذعان له، كما استطاع أن يحتمل اضطهاداتهم في صبر ورجولة، وليس أدل على ذلك من أنه في حالة نفي البطريرك أو عزله أو سجنه، كان الشعب بأسره- بدون بطريرك- يقوم بثورات عنيفة استطاعت في كثير من الأحيان أن ترغم الأباطرة على سحب أوامرهم والإذعان لقوة الشعب.

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة أن الأباطرة كانوا كثيرًا ما يعزلون البطريرك المصري، ويعينون بطريركا آخر في مكانه (كبادو كيا مثلا) إيمانه مخالف لإيمان الشعب المصري، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل الإسكندرية عنوة، وأن يصلي في الكنائس آمنًا من أن يطرده منها الشعب، ثم يبدأ هذا البطريرك الدخيل في اضطهاد المصريين وقتل الكثيرين منهم ليتبوأ منصب البطريرك المنفي، كل ذلك

كان ولا شك يدفع بالمصرين إلى الشعور بقوميتهم المصرية وبأن الرومان عنصر أجنبي مستعمر يستخدم السيف لتحقيق أغراضه وأن البطاركة الدخلاء لا يختلفون في شيء عن الجنود الرومان المغيرين المحتلين لبلادهم، لذلك كانوا يرفضون أن يعاملوهم كبطاركة، وقد أقدموا فعلا في إحدى الثورات على قتل أحدهم وهو جورجيوس الكبادوكي.

## هرطقة أريوس:

ظهرت هرطقة أريوس في عهد الأنبا بطرس خاتم الشهداء، أي في زمن ديو قلديانوس الوثني المضطهد، وقد حرم أريوس من الأنبا بطرس، ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه، ولكن هذه الهرطقة لم تنل قوة ولا انتشارًا في أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة، فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثني التفتت إلى هذه الهرطقة وعملت على دحضها، فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريرك التاسع عشر من بطاركة الإسكندرية، ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته، وانضم إليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى إلى عقد مجمع نيقيه المسكوني في سنة **٣٢٥** م بأمر الإمبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس وإرساء قواعد الإيمان.

وقد ضم هذا المجمع **٣١٨** أسقفًا من أساقفة العالم المسيحي، كان من أبرزهم الأنبا الكسندروس بطريرك الإسكندرية وشماسه أثناسيوس الذي لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره.

## أثناسيوس وجهاده:

ولد أثناسيوس في الإسكندرية سنة ٢٩٦م من أبوين وثنيين، وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى، والثقافة المسيحية بحكم دراسته في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وأضاف إليهما ثقافة نسكية روحية، إذ أنه تتلمذ ثلاث سنوات في البرية على القديس الأنبا أنطونيوس وقد اختاره الأنبا الكسندروس البطريرك تلميذًا له ورسمه شماسا واصطحبه في سنة ٣٢٥م إلى مجمع نيقيه.

وفي مجمع نيقيه بدأت شهرة أثناسيوس العالمية، واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلمًا للإيمان وسط ٣١٨ أسقفًا يمثلون جميع كنائس العالم، وتمكن من تنفيذ آراء أريوس في براعة وأقناع وتولى بنفسه صياغة قانون الإيمان مدققًا في اختيار عباراته كلمة كلمة، وأخذ مجمع نيقيه بأقوال أثناسيوس، وحرم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة، وأقر الإمبراطور هذا الحكم، وانفض المجمع بعد أن نظر في أمور أخرى كانت معروضة عليه، وأصدر عشرين قانونًا كنسيًا.

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن أثناسيوس في العالم المسيحي، وأهلته لأن يخلف الأنبا الكسندروس ويصير بطريركا للإسكندرية سنة ٣٢٦م، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين، وخاصة من كانوا من حاشية الإمبراطور، مما جعل حياة الأنبا أثناسيوسسلسلة من الجهاد والآلام في سبيل الدفاع عن الإيمان المسيحي، وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقيه، فقد

بذل أريوس جهده حتى ضم إليه بعضًا من الأساقفة، وتظاهر بالتوبة وأقنع الإمبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأنباأثناسيوس أن يقبل أريوس، ولكنه رفض طلب الإمبراطور، وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين.

وقد احتمل أثناسيوس في سبيل ذلك النفي عن كرسيه خمس مرات في عهود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس، ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين، ولولم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسيا، فلم يكن أثناسيوس زعيما شعبيا في مصر فحسب، يطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له، بل كان فوق ذلك ممثلا للإيمان السليم في العالم المسيحي كله، تنظر إليه كل الكنائس كمعلمها الأول.

وفي هذا الصراع الذي اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصري كله يؤيده، وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملا فرديًا من جانب البطريرك وإنما كان عملا جماعيا صادرا من الأمة كلها، فلما رفض البطريرك قبول أريوس، أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه، وأدى ذلك إلى قيام ثورة شعبية في مصر بقيادة فيلوم ينوس، واتهم أثناسيوس بأنه كان السبب فيها.

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس في حكم الشرق، وكان أريوسيا، فعين بطريركًا أريوسيًا على الكرسي الإسكندري بدلا من أثناسيوس واسمه جريجوري، ولما لم يسمح له الشعب بدخول

الإسكندرية، زوده الإمبراطور بقوة عسكرية استطاع بها دخول المدينة، واستمرت هذه القوة معه لحمايته خوفًا عليه من حركات الشعب، فعقدت كنيسة الإسكندرية مجمعا ضده من الأساقفة المصريين، فتدخل سيريانوس قائد الحامية- وكان أريوسيًا- وعمل على فض المجمع متوعدًا بتدمير المدينة كلها، حينئذ انسحب أثناسيوس وهرب إلى روما، فارتجت المدينة لهذا البطل المصري ذي المظهر البسيط الفقير، وانعقد مجمع في روما أقر براءة أثناسيوس ووجوب رجوعه إلى كرسيه، كما انعقد مجمع آخر في سرديكيا سنة ٣٤٣م من مائتي أسقف حكم بشرعية رئاسة أثناسيوس لكرسي الإسكندرية، وكتب قسطنطين إمبراطور الغرب إلى أخيه قسطنطينوس، إمبراطور الشرق، ليطلب منه إرجاع أثناسيوس، وقد كان هدف أثناسيوس هو توحيد العالم المسيحي ضد الأريوسية بعد أن عاضدها الإمبراطور، واستطاع بقوته وتأثيره أن ينال تأييد العالم المسيحي، أما في مصر فكان الشعب في اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم، حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين اعتنقوا المذهب الأريوسي وحطموا كنيسة الإسكندرية التي كان الأريوسيون قد استولوا عليها، وخاف الإمبراطور من اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب إلى أثناسيوس سنة ٣٤٦ ثلاث رسائل متتالية يطلب إليه في احترام ولباقة أن يرجع إلى كرسيه، فرجع الأنبا أثناسيوس إلى مصر واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ بمثله الأباطرة.

ولما كان الإمبراطور لم يرجع أثناسيوس إلا بدافع الخوف، فإنه ما كاد يتوفى أخوه قسطنس حتى عاد إلى اضطهاد أثناسيوس وأمر بطرده من مصر، وعطل أثناسيوس هذا الأمر عامًا كاملًا دون أن ينفذه حتى تقدم القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر الإمبراطور واقتحم الكنيسة التي كان يصلي فيها أثناسيوس، وعندما التف الشعب المصري حول زعيمه وراعيه أعمل الجند سيوفهم في الشعب أما الأنبا أثناسيوس فقد حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة، وفتح الشعب أبواب بيوته لإخفائه، وأرسل الإمبراطور رسله إلى مصر يحملون الأوامر بضرورة إحضار أثناسيوس حيًا أو ميتًا، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه.

وعقد الإمبراطور مجمعًا في ميلان سنة ٣٥٥م ضد الأنبا أثناسيوس، وكانت غالبية أعضاء هذا المجمع من الأريوسيين، وتنفيذًا لرغبة الإمبراطور قرر المجمع عزل أثناسيوس، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب.

وتلا ذلك تعيين جاورجيوس الكبادوكي بطريركًا على الإسكندرية بوساطة الأريوسيين ذوي الخطوة لدى الإمبراطور، ثم اتخاذ إجراءات تعسفية ضد الأقباط أتباع أثناسيوس، فقد استخدم جاورجيوس القوة العسكرية لإرغام الشعب على قبول المذهب الأريوسي، فلما رفض، أعمل فيه القتل وشرد الكثيرين من الأساقفة المصريين، وزج باثني عشر منهم في السجون، واقترح على الإمبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل في الإسكندرية.

وفي عهد الإمبراطور يوليانوس (٣٦١ – ٣٦٣) الذي ارتد عن المسيحية إلى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت إلى قتل جاورجيوس البطريرك الدخيل، وعاد أثناسيوس إلى كرسيه، ولكن هذا الإمبراطور أيضًا أمر بطرده من الإسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منفيًا وأنه عاد بدون إذن، وكتب إلى والي الإسكندرية مهددًا إياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه إذا ظهر أثناسيوس في أرض مصر كلها، ولكنأثناسيوس اختبأ في قبر أبيه ستة أشهر ولم يغادر المدينة.

ولما تولى الإمبراطور فالنس (٣٦٤ – ٣٧٨) وكان أريوسيًا، أمر بنفي أثناسيوس مرة أخرى، فرفض الشعب القبطي تنفيذ الأمر ولو أدى إلى استشهادهم جميعًا، وقامت ثورة عنيفة في مصر، واضطر الإمبراطور إلى الإذعان لرغبات الشعب.

وقضى أثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته في سلام حتى توفي سنة ٣٧٣م بعد أن احتمل كثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للأريوسية، دون أن يخضع أو يلين في سبيل المحافظة على الإيمان المسيحي في العالم كله وصونه من الانحراف، وفي خلال هذه الاضطهادات التي نزلت به أختبأ في مغارات الرهبان في الجبال وفي أديرتهم في الصحراء وفي بيوت المؤمنين في الإسكندرية ومرة في قبر أبيه ومرة أخرى في بئر جافة، وكان خلال فترات اختفائه يعمل باستمرار، فقد كتب كثيرًا من المقالات اللاهوتية للرد على الهراطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقيه، كما كتب رسائل تشجيع للمؤمنين وللرهبان،

وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة.

واستمر الإمبراطور فالنس في اضطهاده للمصريين بعد وفاة الأنبا أثناسيوس، فنفى خليفته الأنبا بطرس الثاني (٣٧٣ – ٣٨٠)، وعين بدلا منه لوكيوس الأريوسي وأيده بقوات الإمبراطورية، وأصدر فالنس قانونًا جديدًا عمل على تنفيذه بالقوة، وكان يقضي بإلغاء امتياز الإعفاء من الخدمة العسكرية الذي كان ممنوحًا فيما مضى للرهبان وكذلك لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للأديرة مثل الفيوم، وإرغام كل هؤلاء على الانخراط في الخدمة العسكرية بالقوة، وقد فضل كثير من هؤلاء المصريين أن يلقوا حتفهم وهم يقاومون الإمبراطور على أن يدخلوا في خدمة قوات الإمبراطور.

### فترة هدوء:

ومضت الاضطهادات العنيفة التي أنزلها الأباطرة الرومان بمصر وتحملها المصريون في شجاعة وصبر إبان عهدي البطريركين الأنبا أثناسيوس والأنبا بطرس الثاني، ثم آن لمصر أن تتمتع بفترة هدوء عندما مات الإمبراطور فالنس الأريوسي وتولى العرش الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (من ٣٧٨ – ٣٩٥م) وهو الذي اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة، وساعد هذا القرار على إضعاف الوثنية، فأمكن تحويل الكثير من معابدها إلى كنائس، وقد أرجع هذا الإمبراطور الأنبا بطرس الثاني من منفاه، ولما توفي هذا البطريرك سنة ٣٨٠م اختار الشعب بعده الأنبا تيمو ثاوس بطريركًا، وفي عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية

في هرطقة حول الروح القدس، فاجتمع سنة ٣٨٠م مجمع في القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفًا وقرر حرمه وحرم هرطقته، وقد حضر الأنبا تيمو ثاوس هذا المجمع، وقام فيه بدور رئيسي.

ثم خلفه في البطريركية الأنبا نيو فيلوس (سنة ٣٨٥ – ٤١٢)، وكان عهده عهد سلام وعمران، سواء في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس أو خليفته أركاديوس (سنة ٣٩٥ – سنة ٤٠٨م).

## الأنبا كيرلس وبدعة نسطور:

ثم خلف هذين الإمبراطوريين ثيودوسيوس الصغير (الثاني)، وكان مؤمنًا صالحًا تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ إلى سنة ٤٥٠ وكان محبًا للكنيسة ولرهبان الأقباط، يرسل إليهم ليتبرك بهم ويستشيرهم في كثير من أموره الخاصة، وقد تمتع في عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة في التصرف، حتى قيل أن بطاركة الإسكندرية في تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون في تاريخ مصر، بل أطلق البعض على هذا البطريرك "فرعون مصر".

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس أثناسيوس في المعرفة اللاهوتية وقيادة الفكر المسيحي، اعتلى كرسي البطريركية سنة ٤١٢م في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع في عهده بشبه استقلال في مصر، ودافع عن الإيمان المسيحي، فبدأ بكتابة خطاب إلى الإمبراطور ومنحه فيه البركة، وشرح له الإيمان السليم، ورد على الكتب التي كان قد وضعها قبلا الإمبراطور يوليانوس ضد المسيحية.

ولما لاحظ الأنبا كيرلس أن نسطور بطريرك القسطنطينية قد وقع في هرطقة لاهوتية أرسل إليه يتفاهم معه، ولكن نسطور تمسك برأيه ورفض الإذعان لتعليم كيرلس، واستمال إلى جانبه يوحنا أسقف انطاكية، واعتمد على ما لقيه من عطف الإمبراطور الصغير، ثم تحدى كيرلس علانية واتهمه بأنه عنيد وبأنه يقوم في مصر بدور فرعون.

ولم يجد القديس كيرلس مناصًا من أن يستخدم سلطته كمعلم أول في الكنيسة، فكتب إلى أساقفة العالم يشرح هرطقة نسطور، كما كتب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس وأمه وإخوته، وبعث برسالة إلى نسطور نفسه يشرح فيها قواعد الإيمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء.

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكوني في أفسوس حضره مائتان من أساقفة العالم، وكان مندوب الإمبراطور في المجمع نسطوريًا وهو كانديد يانوس، وقد عمل نسطور على تهديد الآباء المجتمعين في أفسوس بأن دخل المدينة محاطًا بفرقة مدججة بالسلاح، ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة، وإزاء ذلك اضطر المجمع إلى الاجتماع بدونه، وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس، حكم المجمع بخلع نسطور عن كرسيه وتجريده من رتبته الكهنوتية، وقد وافق الإمبراطور على خلع نسطور بمجرد وصول القرارات إليه.

وعندما أقام الآباء أسقفًا جديدًا على القسطنطينية، أرسل إلى القديس كيرلس خطابًا يقول له: "إن رغباتك في إعلان الحق قد تحققت يا خادم الله ...." وكذلك أرسل أسقف روما إلى القديس كيرلس يهنئه بقوله: "هنيئًا لك، فأنت الرجل الجريء المستهين بكل خطر".

ويقول المؤرخ ستانلي في كتابه: "محاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية" ما نصه "لقد أصبح البطريرك السكندري بعد مجمع أفسوس قاضي العالم، تطاع أحكامه في جميع أنحاء العالم المسيحي".

وقد خلف كيرلس أيضًا كتبًا كثيرة قيمة في اللاهوت وفي تفسير الكتاب المقدس.

### ج- الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما

وعندما ارتقى مرقيانوس (سنة ٤٥٠ – سنة ٤٥٧) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل في أعنف وأقسى صورها، فاجتازت مصر طوال الفترة الباقية من حكم الرومان، محتملة اضطهادًا مرًا عنيفًا لم يتخلله سوى هدنة قصيرة في عهد الملكين زينون وانسطاسيوس (٤٧٤ – ٥١٨).

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيستي روما والإسكندرية أدى إلى انقسام استمر من سنة ٤٥١ حتى يومنا هذا، وعرف أتباع كنيسة روما باسم "الكاثوليك" بينما عرف أتباع كنيسة الإسكندرية ومن سار على نهجهم باسم "الأرثوذكس" ويتبعهم أيضًا السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم "اليعاقبة".

ولما رفض الأنبا ديسقورس بطريرك الإسكندرية الموافقة على مسائل إيمانية أوردها لاون أسقف روما حول طبيعة المسيح، استخدم لاون نفوذ الإمبراطور في نفي ديسقورس عن كرسيه وفي محاولة إرغام المصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حول طبيعة المسيح، وتعرض المصريون من أجل الثبات على إيمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استشهاد جديدة كالحركة التي خاضوها في عهد أباطرة الرومان الوثنيين، بل إن عدد الذين استشهدوا منهم على أيدي المسيحين، من أتباع مذهب الطبيعتين المخالف لمذهبهم، قد يزيد بكثير على عدد الذين استشهدوا على أيدي الوثنيين.

وكان الملك كلما أختار الشعب المصري بطريركًا قبطيًا، أمر بعزله عن منصبه، فينفى من مصر أو يهرب مختفيًا في أرجائها، ويعين بدلا منه بطريرك ملكي من أتباع مذهب الطبيعتين، وينصب هذا البطريرك الدخيل بالقوة أملا في إرغام الأقباط على قبول مذهب غير مذهبهم، فإذا رفضوا هذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الإمبراطور فيهم القتل والسجن وكافة أنواع الاضطهاد.

ولكي يزداد الاضطهاد بشاعة لجأ الأباطرة منذ عهد يوستنيانوس إلى جعل البطريرك الملكي يجمع أيضًا إلى وظيفته الكهنوتية منصب الوالي المدني لتجتمع لديه السلطتان معًا، ولما كانت جميع كنائس الإسكندرية في أيدي هؤلاء الدخلاء فإنهم استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطاركة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنوهم حتى من دخول مدينة

الإسكندرية، ولما كانت في أيديهم القوة العسكرية أيضًا فإنهم استخدموها في اضطهاد الأقباط كما يشاءون، وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب مصر، فكان البطريرك القبطي الأنبا بنيامين هاربًا من الرومان مختفيًا في البلاد والأديرة المصرية، بينما كان المقوقس يجمع بين وظيفتي الوالي الروماني والبطريرك الملكي ويضطهد المصريين.

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التي اختلط فيها الاستعمار السياسي بالاستعمار الديني وقف الشعب المصري صامدًا لا يلين، ويرفض كل بطريرك، متحملا في سبيل ذلك صنوف العذاب، ويرفض كل معتقد يخالف إيمان كنيسته القبطية، ويؤيد بطريركه القبطي ويطيعه وهو غائب عن كرسيه مشردًا في أرجاء القطر أو متنكرًا في مكان ما، وكذلك أظهر البطاركة شجاعة عجيبة وصبرًا واحتمالا، كلما اضطهدوا انتقلوا من مكان إلى مكان يثبتون الأقباط في إيمانهم ويشجعونهم على الصمود أمام عنف العدو المستمر.

فعل الأقباط هذا بينما خارت قوى غالبية أسقفيات العالم المسيحي، واضطرت إلى الخضوع لسيطرة أباطرة الرومان وباباوات روما، ولم تقف إلى جوار الإسكندرية غير أسقفية أنطاكية التي لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحمل أساقفتها العزل والنفي، وتحمل شعبها القتل والاضطهاد في سبيل الإيمان الواحد الذي دافع عنه ديسقورس الإسكندري.

**بدء انقسام الكنيسة:**

لما قامت هرطقة أوطاخي، انعقد بسببها في أفسوس سنة ٤٤٩م مجمع، سمي أسوس الثاني وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الإسكندرية، ولما مثل أوطاخي أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن إيمانه، أنكر هرطقته إنكارًا باتًا، وقدم إيمانه مكتوبا يوافق ما أمر به الآباء، ولما نوقش شفاها أجاب بنفس الكلام أيضًا، فعرض الأنبا ديسقورس أمر أوطاخي على آباء المجمع، فقرروا براءته مما نسب إليه، وقبوله في الكنيسة هو ورهبان ديره الذين ناب أحدهم عنهم في إثبات صحة إيمانهم، كما قرر هذا المجمع أيضًا حرم فلابيانوس أسقف القسطنطينية لثبوت تهم قدمت ضده.

ثم حدث أن دعا لاون أسقف روما سنة ٤٥١م إلى عقد مجمع مسكوني ودعا إليه ديسقورس، وكان يرى ألا داعي لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام من جهة الإيمان، ولكن الظاهر أن لاون أسقف روما ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الإسكندرية، ودفعه ذلك إلى أن اتهمهم بأنهم لا هم لهم سوى عقد المجامع والترأس عليها، فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيدة للتخلص من ديسقورس.

ولما وصل ديسقورس إلى القسطنطينية حيث كان المجمع مزمعًا أن ينعقد، دهش من وجود بعض من أساقفة النساطرة المحرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم، ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا روما، فلما سمعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه في هرطقة الطبيعتين بينما قررت

أقوال الآباء صحة مذهب الطبيعة الواحدة، ووقف وسط الأساقفة يشرح هذه المسألة في قوة وإقناع حتى صاح الجميع "نحن على إيمان ديسقورس". ولما رأى الإمبراطور مركيانوس ذلك- وكان حاضرًا الاجتماع- وأعز إلى اتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع إلى اجتماع آخر.

وفي خلال ذلك دعى ديسقورس إلى اجتماع خاص في قصر الإمبراطور، ولما أصر على إيمانه، وعلى حرمه للأسقف لاون المنادي بمذهب الطبيعتين، اعتدى عليه وسجن، وانعقد المجمع في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م، وتحت تهديد القوة بدأ الضغط على الأساقفة حتى قرروا: عقيدة الطبيعتين، وعزل ديسقورس، واتهامه بالأوطاخية لتبرئته أوطاخي، الذي كان قد رجع مرة أخرى إلى هرطقته، وأثبت بذلك أن توبته الأولى أمام ديسقورس في مجمع أفسس الثاني توبة زائفة، كما حكم المجمع أيضًا بتبرئة لاون أسقف روما، ولما عرضت قرارات المجمع على ديسقورس، حرم أعضاء مجمع خلقدونية كلهم، بسبب نحراف الإيمان الذي وافقوا عليه، فنفى ديسقورس إلى جزيرة غاغرا، وأرسل المجمع الخلقدوني إلى أساقفة الكرسي السكندري يدعوهم للإيمان بمذهب الطبيعتين فرفضوا وقرروا عدم الاعتراف بمجمع خلقدونية، فبدأ الإمبراطور باستخدام القوة لإرغام رجال الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية، فلما رفضوا الأمرين قامت مذابح في الإسكندرية وفي الأديرة قتل بسببها

شعب كثير، وانقسمت المسيحية إلى مذهبين، ومع أن ديسقورس وقف وحده وخاف الأساقفة من الانضمام إليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وبشعبه، إلا أن ثورات شعبية أخرى قامت في أورشليم وبلاد أنطاكية احتجاجًا على قرارات مجمع خلقدونية، فاستخدمت القوة ضدهم أيضًا واستشهد منهم عدد كبير.

وظل ديسقورس في منفاه حتى توفى سنة ٤٥٧م، وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد عينوا مكانه بطريركا من مذهبهم اسمه بروتوريوس، فرفضه الشعب المصري وطرده من البطريركية، حتى اضطر إلى الاستعانة بالقوة المسلحة للتمكن من دخول الكنيسة، وإذ أعرض الشعب عنه وبدأ يترك الكنيسة له ولمن يناصره من جنود الرومان، أمر الجنود فأعملت فيهم السيوف فقتل في ذلك اليوم عدد وفير، كما قتل كثير من الرهبان، وأحاط الحراس بهذا البطريرك الدخيل، واتخذت بعض إجراءات مدنية، كإيقاف الألعاب الرياضية وغلق الحمامات العامة وتهديد الشعب بسحب إمدادات القمح.

ولكن الشعب المصري ظل متمسكًا ببطريركه المنفي إلى أن توفى في منفاه سنة ٤٥٧م، ولم تدم بطريركية بروتوريوس المكروهة أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندري انتهز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية إلى مصر العليا في عهد الإمبراطور ليون الأول (سنة ٤٥٧ – ٤٧٤) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيها من بروتوريوس واختاروا راهبًا قبطيًا أقاموه بطريركا باسم تيمو ثاوس الثاني، ولكن الإمبراطور تحدى الأقباط

وعزل الأنبا تيمو ثاوس الذي اختاره الشعب ونفاه كسلفه ديسقورس، إلى جزيرة غاغرا، وعين مكانه بطريركا من مذهب الطبيعتين اسمه سالوفاسيولس، وكان السبب في ذلك هو أن الأنبا تيمو ثاوس الثاني جمع سينودا من أساقفته في الكرسي السكندري سنة ٤٥٨م وأصدر قرارًا بحرم مجمع خلقدونية، فاضطر ليون الأول أن ينفيه واستمر سبع سنوات في منفاه إلى أن مات هذا الإمبراطور فرجع البطريرك الإسكندري إلى كرسيه.

**فترة هدوء:**

ثم تمتعت الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون (٤٧٤ – ٤٩١) واستطاع البطريرك القبطي الأنبا تيمو ثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجمعًا في القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدوني ورسالة لاون أسقف روما، كما وزع منشورًا بذلك وبرفض عقيدة أوطاخي ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة، ولذلك فإن المؤرخ الكاثوليكي فلاديمير يقول في كتابه عن التاريخ الكنسي أن "تيمو ثاوس الذي وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا".

ولما توفى الأنبا تيمو ثاوس الثاني، خلفه الأنبا بطرس الثالث (٤٨٠ – ٤٨٨)، وتمتعت الكنيسة بسلام في عهده أيضًا، وبذلت محاولات للتقريب بين كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية، وعقد من أجل ذلك مجمع في القسطنطينية سنة ٤٨١م انتصرت فيه الآراء القويمة التي

تمسكت بها الكنيسة المصرية، وأصدر المجتمعون مرسومًا أسموه "كتاب الاتحاد" صدق عليه الملك زينون، ولكن الإسكندرية اشترطت على أساقفة القسطنطينية رفض قرارات مجمع خلقدونية صراحة، وتبودلت رسائل بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الإسكندري، ورفض فيها أكاكيوس مجمع خلقدونية وسماه "مجمع المخالفين" كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور، فقبله بطرس الثالث، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسي الإسكندري واحتجوا على بطريركهم قائلين له "كيف قبلت أكاكيوس الذي حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه؟" فرد عليهم بقوله "إنما قبلته لرجوعه عن ذلك الرأي".

ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انضمامًا وقتيًا إلى مذهب الطبيعة الواحدة في عهد ملك أرثوذكسي مثل زينون، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية إلى التمسك بقرارات مجمع خلق دونية، وفي الواقع أن كنيسة الإسكندرية كانت صامدة في موقفها ثابتة على الإيمان لا تزحزحها عنه الاضطهادات، ولم تثبت معها في ذلك سوى كنيسة أنطاكية.

وقد استمرت فترات الهدوء أيضًا خلال حكم انسطاسيوس (٤٩١ – ٥١٨)، وفي هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيستي الإسكندرية وأنطاكية لاتفاقهما في الإيمان الواحد.

## عودة الاضطهادات

ولما تولى الحكم الإمبراطور يوستينوس الأول (٥١٨ – ٥٢٧) وكان على كرسي الإسكندرية البطريرك تيمو ثاوس الثالث (٥١٧ – ٥٣٥)، حاول هذا الإمبراطور إرغام كنيستي الإسكندرية وأنطاكية على قبول معتقد مجمع خلقدونية، فلما رفض ساويرس بطريرك أنطاكية نفاه عن كرسيه فجاء إلى مصر، وظل فيها هاربًا ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن دير إلى دير محاطًا بمحبة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم في الكنيسة، وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم في الإيمان، كما أخذ هذا الإمبراطور يضطهد الأنبا تيمو ثاوس بطريرك الإسكندرية وأمر بنفيه، وجرت بسبب ذلك مذبحة هائلة قتل فيها نحو مائتي ألف نفس من الأقباط أرادوا حماية بطريكهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه وتم نفيه، وبقى في منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها إلى مركزه، واستمر مدافعًا عن الإيمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك أنطاكية حتى توفى سنة ٣٥٣ ميلادية في عهد الإمبراطور يوستنيانوس الأول.

وخلفه على كرسي الإسكندرية الأنبا ثينودو سيوس الأول (٥٣٥ – ٥٦٧)، وقد عرض عليه الإمبراطور أن يقبل رسالة لارون ويساعده على نشرها في مقابل أن تكون له الرئاستان "البطريركية والولاية" ويكون جميع أساقفة أفريقية تحت طاعته، فرفض ذلك وقال لرسل الإمبراطور "ليس للملك سلطان إلا على جسدي ... فمهما أردتم ففعلوه وأما أنا فأتبع

إيمان آبائي"، وترك كرسيه حسب أوامر الإمبراطور في حالة الرفض وذهب إلى الصعيد، فحاول الإمبراطور ملاطفته وإغراءه فلم يلن البطريرك فنفاه، وأرسل بدلا منه بولس التنيسي ليكون بطريركا على الإسكندرية وقام برسامته مينا بطريرك القسطنطينية، فلما وصل هذا البطريرك الدخيل إلى الإسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه "يهوذا الخائن"، ولم يقبل أحد أن يصلي معه، فأرسل إلى الإمبراطور يخبره بذلك فأمره بغلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصري مكانًا للصلاة فبنوا كنيستين سرًا في المكان المعروف باسم السواري فربي الإسكندرية، ولم تبق للبطريرك القبطي المنفي سوى هاتين الكنيستين لأن الإمبراطور أمر بألا يدخل كنائس الإسكندرية إلا أتباع البطريرك الدخيل، وأقام الأنبا ثينودوسيوس باقي حياته في المنفى.

وقد خطا يوستنيانوس خطوة أوسع في اضطهاد المصريين وإرغامهم على قبول مذهب الطبيعتين، فبعد وفاة بولس التنيسي عين من قبله أبو لينا روس بطريركا على الإسكندرية وحاكما لها في نفس الوقت.

وقصد من ذلك أن يجعل في يد الرئيس الديني القوة العسكرية التي تمكنه من تنفيذ أوامره، وقد بدأ هذا البطريرك الدخيل عهده بمذبحة كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب الذين رفضوا اتباع عقيدته، وحاولوا رجمه في الكنيسة حين وقف ليخاطبهم، وبهذه المذبحة تمكن من التخلص من أعنف العناصر المعارضة، وهذا العمل لم يجعل من هذا البطريرك الدخيل سوى حاكم مدني، لأنه لم يتمكن من ممارسة شيء من

السلطة الدينية التي ظلت في يد البطريرك الشرعي الذي اختاره الشعب، ولكن أساقفة الأقباط لم يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهروا في الإسكندرية.

ولذلك فعندما رسم البطريرك القبطي الأنبا بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه ثينودوسيوس، أقام في كنيسة تبعد عن الإسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى في دير تابور بالقرب من الإسكندرية متنكرًا في درجة أسقف لا بطريرك، ودبر أمور الشعب من هناك، ولما سمع بذلك أهالي أنطاكية قلدوا كنيسة الإسكندرية، فرسموا لهم بطريركًا بعد وفاة القديس ساويرس أسموه ثيثوفانوس أقام مختفيًا في دير أمونيوس لأن أصحاب الطبيعتين هناك منعوا الأساقفة الأرثوذكس من دخول مدينة أنطاكية متبعين معهم نفس السياسة التي قامت في الإسكندرية.

ثم قام البطريرك الأنبا داميانوس الإسكندري وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩م وأقام مدة رئاسته التي بلغت ستًا وثلاثين مختفيًا في دير تابور أيضًا في درجة أسقف.

ثم تولى البطريركية انسطاسيوس سنة ٦٠٥م وزاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى أن الرومان حرموا على الأقباط دخول الكنيستين اللتين بنوهما سرًا غربي الإسكندرية.

ثم تولى البطريركية الأنبا أندرو نيقوس سنة ٦١٦م واستطاع أن يقيم في الإسكندرية معتمدًا على قوة أسرته التي كانت غنية جدًا وتتولى بعض المناصب الإدارية الكبيرة في المدينة، ولم تستطع قوة الرومان أن تخرجه

منها، ولعل السبب في ذلك هو أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك في حالة يرثى لها، إذ اجتاحت جيوش الفرس كثيرًا من أراضيها، ولما ازداد ضغط الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية للإمبراطورية هاجر الكثير من أهالي سوريا وفلسطين لاجئين إلى مصر، وعجز يوحنا البطريرك الملكاني عن إعالتهم وحمايتهم فهرب من المدينة وترك البلاد للفرس، وقد قتل الفرس آلافًا من الرهبان الأقباط وخربوا كثيرًا من الأديرة.

وفي سنة ٦٢٢م تولى بطريركية الإسكندرية الأنبا بنيامين الذي عاصر الفتح العربي لمصر، وبعد تسع سنوات من بطركته عين هرقل سنة ٦٣١م بطريركًا ملكانيًا (ملكيًا) اسمه كيرس وهو الذي اشتهر باسم المقوقس، وجمع لهذا البطريرك بين وظيفته الكهنوتية وبين وظيفة الوالي ليكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم إلى مذهب القائلين بالطبيعتين، ويبدو أن هرقل لم يكن موفقًا في اختيار هذا الرجل الذي كان ضيق الصدر، فإنه لما عسرت عليه استمالة المصريين إلى مذهبه المخالف اضطهادهم اضطهادًا رهيبًا مما نفرهم منه في وقت كانت الإمبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج إلى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفها في حربها مع الفرس.

أما البطريرك القبطي الأنبا بنيامين فاختفى هو وسائر أساقفة مصر جميعًا، وظل يتنقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع في أيدي الرومان.

واستغل هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة من الملكانيين في بلاد مصر كلها من الإسكندرية إلى أنصنا، فنكلوا بالأقباط تنكيلا شديدًا.

ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلا إذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه

العربية إلى مصر، وفتحها سنة ٦٤١م ولما استتبت له الأمور أعطى أمانا للأنبا بنيامين، فرجع إلى كرسيه في الإسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة، وبدأ يعيد غلى الكنيسة أولئك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل في قبول قرارات مجمع خلقدونية، وصرح عمرو له بفتح الكنائس وإقامة العبادة فيها.

## الاضطهادات العشرة

تؤرخ الكنيسة لشهدائها برقم الاضطهاد، وقد بلغ عددها عشرة:

**الأول**: هو الاضطهاد الذي وقع على مسيحي الإسكندرية في عهد نيرون الملقب بالملك الدموي من سنة ٦٥ إلى سنة ٦٨ ميلادية، حدث هذا عندما اختطف الوثنيون القديس مرقص من كنيسة بوكاليا بالإسكندرية، وهجم الدهماء على المسيحيين فسلبوا أموالهم وأعملوا فيهم القتل.

وكان أول دم شهيد أريق على أرض مصر هو دم القديس مرقص وذلك في ٣٠ برمودة الموافق ٢٦ أبريل سنة ٦٨ ميلادية ودفنت رفاته في الكنيسة التي أنشأها بالإسكندرية، ثم نقل جسده فيما بعد إلى مدينة البندقية.

**الثاني**: اضطهاد دوميتيان (٨١ – ٩٦م) الذي أمر باضطهاد أتباع المسيح، وذلك بعد أن خيل إليه أن أحد أقرباء المسيح سيأتي ويسلبه مملكته، ثم عن له أن يستدعي كل من يمت للمسيح بقرابة إلى روما، ولما واجههم، وجدهم جماعة من الفقراء والمعوزين فأخلى سبيلهم، وسمح لهم بالعودة إلى بلدهم.

**الثالث**: اضطهاد تراجان (٩٨ – ١١٧م) كان تراجان يخشى من التآمر على عرشه فأصدر سنة ٩٩م أمرًا يمنع فيه الاجتماعات السرية، ولما كان المسيحيون لا ينقطعون عن الاجتماع للعبادة، فقد أمر سنة ١٠٤م باضطهادهم أينما وجدوا، وأخذ في استئصال قادة الشعب من رجال الدين، وممن استشهد في هذا الاضطهاد الأنبا كردونوس البطريرك الرابع من باباوات الكرسي الإسكندري.

**الرابع**: اضطهاد هدريانوس (١١٧ – ١٣٨م) أباح هدريانوس للرعاع أن يقتلوا المسيحين دون أن يقدموا للمحاكمة مهما بلغ عدد الضحايا، وكان يرمي من وراء ذلك أن يمنحه الكهان الوثنيين لقب "حامي الوثنية الأعظم"، واحتج الكتاب المسيحيون على هذا التصرف غير القانوني، وكان لكتاباتهم صدى في بلاد الإمبراطورية، واضطر هدريانوس إلى التراجع عن إجراءاته التعسفية.

**الخامس**: اضطهاد مرقس أوربليوس (١٦١ – ١٨٠) كان متعصبا للفلسفة الرواقية، فأخذ يرغم المسيحيين على اعتناقها بقوة السلاح، وكان يخشى على سلامة الإمبراطورية من انتشار المسيحية، ولهذا كان يهامل المسيحيين بكل قسوة، ولم يفد احتجاج القديس ميليتون أسقف ساردس وأثيناغوراس الفيلسوف في منعه من الاستمرار في الاضطهاد.

**السادس**: اضطهاد سبتيموس سويروس (١٩٣ – ٢١١م) لم يكد المسيحيون يتنفسون الصعداء في عصر كومودوس (١٨٠ – ١٩٢م) حتى تولى الحكم سبتيموس سويروس خلفًا له، فأمر على أثر ثورة اليهود

بقتل كل من يدين بالمسيحية، وذلك بمرسوم أصدره سنة ٢٠٣م واستمر ابنه كراكلا (٢١١ – ٢١٨م) في تنفيذ ما بدأه أبوه، وكان الخطيب ليونيدس، والد أوريجانوس ممن استشهد في هذا الاضطهاد.

**السابع**: اضطهاد مكسيموس التراكي (٢٣٥ – ٢٣٨م) أعلن سخطه على المسيحيين وبخاصة رؤساء الدين وأمر باضطهادهم.

**الثامن**: اضطهاد دكيوس (٢٤٩ – ٢٥١م) أصدر أمرًا سنة ٢٥٠ باستئصال المسيحيين وإرغام أتباعها على اعتناق الوثنية.

**التاسع**: اضطهاد فاليريان (٢٥٢ – ٢٦٨م) أصدر أمرًا سنة ٢٥٧ بنفي الأساقفة من كراسيهم إلى جهات بعيدة، ولما رأى أن ذلك لم يؤثر في سير العمل في الكنيسة أمر باضطهاد المسيحيين وقتل كبار رجال الدير ومصادرة أموال المسيحيين، ومنع الفرسان المسيحيين من التمتع بكافة حقوقهم المدنية.

**العاشر**: اضطهاد ديو قلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) كان أكثر الاضطهادات عنفًا، أثاره ديو قلديانوس سنة ٣٠٣ حين أصدر مرسومًا بهدم كنائس المسيحيين وحرق كتبهم المقدسة، واخذ يبطش بالأساقفة ويقتل المسيحيين، وكان هذا آخر الاضطهادات، إذ في سنة ٣١٢م قرر قسطنطين (٢٧٤ – ٣٣٧م) الاعتراف بالدين المسيحي في الإمبراطورية، وفي سنة ٣١٣م وقع مرسوم ميلان الذي أباح فيه الحرية الدينية.

# الفصل الثاني
# الحياة اللغوية

اللغة هي الأداة التي يعبر بها الإنسان عن أفكاره ومشاعره، ولا يحدث أن يرتقي شعب، وتتنوع الأعمال فيه، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف نواحي الحياة، ولما كانت مصر القديمة قد وصلت إلى درجة كبرى من الرقي، فقد تطورت لغتها حتى سايرت أسباب الحضارة فيها بألفاظها المتنوعة وقواعدها التي تضبط التركيب، وتعبيراتها ومصطلحاتها في شتى العلوم، كما كان أدبها الواسع في الميدان الديني والعلمي والشعبي، وغير ذلك من الميادين داعيًا إلى نشاط اللغة وحيويتها، واللغة كائن يولد ويكبر ويتطور.

## مراحل تطور اللغة المصرية:

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل:

١- **اللغة المصرية القديمة**: وهي لغة الأسر من الأولى إلى الثامنة مُنذ حوالي سنة **٣٤٠٠** ق.م إلى سنة **٢٤٠٠** قبل الميلاد، ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر، ومنها نصوص الأهرام، وسير لبعض الأشخاص، ولهذه اللغة خصائص ميزتها في بعض تعبيراتها وأملائها.

٢- **اللغـة المصـرية المتوسـطة:** هي لغة الآداب من الأسرة التاسعة إلى الأسرة الثامنة عشرة، منذ حوالي سنة ٢٤٠٠ ق.م إلى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد، وصارت لغة الأهلين نحو ثلثي هذه الحقبة.

٣- **اللغــة المصــرية الحديثــة:** وهي لغة الأهلين من الأسرة الثامنة عشرة إلى الرابعة والعشرين أي منذ حوالي سنة ١٥٨٠ إلى سنة ٧١٠ قبل الميلاد، ووجد مدونًا بها وثائق خاصة بالمعاملات والرسائل، وبعض الحكايات والقصص الأدبية، ودونت بها نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها، على أننا لم نعثر منها إلا على القليل، وقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة.

٤- **الديموطيقيــة:** وهي المستخدمة في الكتب والوثائق التي كتبت منذ الأسرة الخامسة والعشرين إلى آخر عصر الرومان من سنة ٧٠٠ إلى سنة ٤٧ قبل الميلاد.

٥- **القبطيـة:** هي اللغة المصرية القديمة في صورتها الأخيرة من مراحل تطورها.

ظلت اللغة المصرية القديمة في مراحلها المختلفة لغة الكتابة والتخاطب في مصر حتى قيام دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية، وبمضي الزمن أخذ كثير من المصريين يتعلمونها ويستخدمونها في وثائقهم وخطاباتهم حتى ولو كانوا يجهلونها، ولا جدال في أن اللغة

المصرية كانت لا تزال تستخدم في الكتابة الدينية والتخاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل، ولا يفوتنا أن نذكر أن غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أي لغة وبطبيعة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية.

وقد صحب ازدياد استخدام اللغة اليونانية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية، وتبع وضع الأبجدية القبطية تنظيم هذه اللغة المصرية الدراجة لرفعها إلى مصاف اللغات الأدبية، وأدى ذلك إلى أن ظهرت اللغة القبطية بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادي.

**اسمها**: سميت بالقبطية لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يسمون أقباطًا، وقبطي معناه مصري.

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمي مصر قديمًا باسم "مصر"، هكذا تسمى في الأشورية وسميت في الآرامية "مصرين" وفي العبرية "مصرايم" وعرفها العرب باسم "مصر"، والمصر في اللغات السامية بمعنى الحد وقد أطلقت الشعوب السامية من أشوريين وآراميين وعبريين وعرب على البلاد المتاخمة لهم "مصر" كما أسموا سكانها بالمصريين، ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة، (ومما يستحق الملاحظة أن كلمة فينيس في اللاتينية بمعنى حد، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضًا).

وسمي القبط مصر كيمي "السواد" أي الأرض السوداء، وأسماها الأشوريين في نقوشهم المسمارية "هيكو بتاه" وهو الاسم الذي كان

يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه "بيت روح بتاح"، وكان اطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من سبيل اطلاق العاصمة على القطر كمل تعودنا ذلك في المحافظات الآن.

وسمع اليونان هذا الاسم فأخذوه عنهم منذ عصور قديمة وأسموها "ايجبتوس" وورد اسمها هذا عدة مرات في شعر هوميروس، فإذا حذفنا علامة الرفع (و س) في اليونانية ثم الحركة الأولى التي ظنها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم قبط.

أما المراحل التي اجتازتها كتابة هذه اللغة فهي:

ا- **الخط الهيروغليفي**: الذي اكتسب صفة القدسية، ولذا أعطى هذا الاسم "هيروغليفي" المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما "هيروس" أي مقدس، و"غليفوس" أي نقش.

ب- **الخط الهيراطيقي**: وهو أيسر من الهيروغليفية بعض الشيء واستعمله الكهنة في كتاباتهم، والتسمية مأخوذة أيضًا من اللغة اليونانية، ومعناها "خاص بالكهنة".

ج- **الخط الديموطيقي:** وهو من اليونانية ومعناه "خاص بالشعب"، فالخط الديموطيقي هو الصورة المبسطة التي أخذ الشعب المصري يستخدمها في كتاباته في العصور المتأخرة.

د- **الخط القبطي:** قامت محاولات فردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية، وكان ذلك في العصور الوثنية، بدليل العثور على

نصوص قبطية من العصر الوثني لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحفي باريس ولندن.

وكافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو آخر، دون أن يكون لذلك أي شأن بالمسيحية، وانتهى الأمر بأن استطاع شخص أو جملة أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطي وكتبوا لغتهم بحروف يونانية وأضافوا إلى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقي، تعبر عن أصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي الأحرف السبعة: شاي (ش) وفاي (ف) وخاي (خ) وهوري (هـ) وجنجا (ج) وتشيما (تش) وتي (ت).

**اللهجات القبطية:** المعروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى، وهذا ما نراه واضحًا بين سكان مصر الآن، وهذا طبيعي في اللغات إذا انتشرت في منطقة واسعة وتوالت عليها العصور، ولا ريب أن بعض الاختلافات التي كانت قائمة في المصرية القديمة كانت أساسًا لما وجد منها في اللهجات القبطية المتعددة.

قسم العلماء اللهجات القبطية إلى قسمين:

١- **لهجات مصر السفلى**:

ويعرف منها الآن البحرية نسبة إلى البحر أي لغة الأراضي المجاورة للبحر أو ربما كانت منسوبة لمحافظة البحيرة، وهي اللهجة الأولى التي وصلت إلى درجة اللغة الأدبية وكان ذلك في مدينة الإسكندرية.

ب- **لهجات مصر العليا:**

١- الصعيدية نسبة إلى صعيد مصر وهي لهجة طيبة، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلي، وكانت تسمى بالطيبية.

٢- الفيومية، انتشرت في الفيوم.

٣- الأخميمية، تكلم بها أهل مدينة أخميم ثم أفسحت المجال للصعيدية.

هذه اللهجات الأربع هي اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات:

١-المنفية، سادت في منطقة منف وحلت محل البحيرية.

٢-الأخميمية الفرعية أو الأسيوطية، وانتشرت فيما بين البهنسا وأسيوط وقد اشتقت من الأخميمية.

٣-البشمورية، اشتقت من البحيرية وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت، ويرجح أنها كانت لهجة قبطية تكلم بها اليونان في شرقي الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية.

٤-واشتق من الفيومية لهجة أخرى عثر على نص منها في البجوات بالواحات الخارجة ويرجح أنها كانت خاصة بالواحات.

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من عدة لهجات اندمجت بعضها في بعض كما نلاحظ هذا أيضًا في البحيرية، ودليلنا على ذلك

وجود صيغ مختلفة لكلمة واحدة، ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية القديمة ما يأتي:

١-أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية.

٢-دخلت عليها مفردات وتعبيرات يونانية، وبخاصة في العصر المسيحي.

٣-أبدلت بعض الحروف في الكلمات وبخاصة الحروف السائلة ل م ن ر، كأن يقال "ل س" بدلا من "لس" أي لسان، كما دخل القلب على بعض الكلمات مثل "إتبي" بدلا من "بت" أي سماء.

٤-كتبت القبطية بالحروف الصامتة والمتحركة ولم يعرف الخط القديم إلا الحروف الصامتة.

٥-حملت لنا القبطية كلمات لم نعثر عليها في المصرية القديمة.

٦-وأهملت القبطية كلمات مصرية قديمة.

## اللغة القبطية والبرديات العربية:

إن دراسة البرديات العربية تعبر عن الحياة في مصر منذ الفتح العربي حتى منتصف القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر الميلادي) بما فيها من معاملات، وبما تدل عليه من تقاليد فتظهر ما كان عليه عامة الناس وخاصتهم في تلك الفترة.

ولعل أول ما دونت الألفاظ القبطية الدخيلة كانت في أوراق البردي، والقدر الذي وصلنا من هذه الألفاظ والتعبيرات ضئيل، لأن ما

نشـر إلـى الآن مـن البرديـات لا يعـدو الألفـين برديـة، والعـدد المقـدر للبرديات العربية في العالم ستة عشر ألف بردية.

إن النصوص التي كتبها عامة الناس سواء من القبط أو من العرب، كتبوها في أكثر الأحيان بالألفاظ والتراكيب التي كانوا يستخدمونها في عصرهم، وهي لذلك تكشف عن مرحلة هامة في تاريخ اللغة العربية في مصر في القرون الأولى من الفتح العربي، وتدل لغة البرديات على مدى اختلاط العرب بالأقباط والأثر اللغوي الذي خلفوه في مصر، كما تدل على أثر الأقباط بالعربية تأثرًا لم يكن سريعًا.

انتشر العرب في مصر وأفادوا من زرعها، ونعموا بخيرها، وكانوا لا يزرعون وإنما يزرع لهم القبط، ومن ثم كان الاختلاط الحتمي الذي فرضه الواقع وأقرته المصلحة بين العرب وبين الأقباط.

اتخذ هذا التأثر سبيله فكان أسرع في الوجه البحري منه في الوجه القبلي.

وخلـف التـأثر والامتـزاج سـمات فـي ألفـاظ اللغـة العربيـة المصـرية وتراكيبها كما خلف ألفاظًا دخيلة.

وإذا تركنا ما ورد من قبطية في الأوراق البردية نجد أن ما وصل إلينا بعد ذلك مدونًا لا يكاد يذكر، وقد أراد بعض العلماء أن يعزوا أسباب ذلك إلى الطابع القومي، ولكن بقي علينا أن ننظر إلى أن تعذر كشف أثر اللغة القبطية في عربية مصر يرجع إلى طبيعة مصادرنا، فلو أن مصر منيـت بكاتـب مثـل الجـاحظ الـذي أولـع بتصـوير لغـة الطبقـات الـدنيا والوسـطى بـين سـكان المـدن فـي القـرن الثـاني الهجـري فـي العـراق

والحجاز، لأفادنا بما كان قائمًا في مدن مصر من العلاقات اللغوية، لأنها كانت لا تختلف كثيرًا عن البصرة والكوفة وغيرهما.

ونجد العربية في مصر تأثرت بالإصلاحات المصرية، فالمصريون هم الذين يحددون الجهات بالبحري والقبلي بدلا من الشمالي والجنوبي.

وقد وجدنا في البرديات العربية بعض الألفاظ القبطية، كما وجدنا أثرًا للهجات القبطية في مثل اسم العلم أركليدس فقد ورد الكليدس وظاهرة إبدال الراء لا ما موجودة في لهجة الفيوم القبطية، ومما ورد في البرديات من آثار القبطية في التركيب العربي استعمال المفرد بدل الجمع، في مثل تسعة دينار بدلا من دنانير وأربعة ألف بدلا من أربعة آلاف.

ووردت كذلك في البرديات العربية ألفاظ لاتينية ويونانية معظمها من ألفاظ الإدارة التي دخلت القبطية وشاعت عند الناس، ومنها دخلت العربية مثل مازورت أي قاضي وجموعها على موازيت، وطبل أي لوحة وجمعها طبول وهي من اليونانية، وأفنيز من اليونانية ومعناها فنجان ثم أطلقت على مكيال معين، وأسيه وهي الآن وسيه من اليونانية أي ملك أو التزام، ونواتيه أي البحارة من اللاتينية، وكذلك وردت أسماء الشهور القبطية في البرديات العربية بطريقة نطقها القديم.

### احتضار اللغة القبطية:

أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية ابتداء من القرن التاسع

الميلادي، وطبيعي أن حلول العربية محل القبطية في الكتابة سبقه انتشار العربية كلغة للتخاطب بين أفراد الشعب، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين، ثم صارت لغة التعليم، وقد جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يؤلفون في اللاهوت باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم السائدة وكان يفهمها أغلب سكان مصر، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحري، وظلت القبطية لغة التخاطب في الوجه القبلي حتى القرن السابع عشر.

ويقول المقريزي في القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موشه "والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطي الصعيدي وهو أصل اللغة القبطية، وبعدها اللغة القبطية البحيرية، ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية"، ويقول ماسبرو "ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر".

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية، ولكنها بقيت لغة الكنيسة تستخدم في الصلوات وقراءات الكتب المقدسة، ويعرفها بعض الأفراد من الأقباط، في الأديرة أو المدن، عن طريق اتصالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها، هذا طبعًا غير العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين بدراستها.

## أثر اللغة القبطية خارج مصر:

بالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية، إلا أننا نرى لها آثارًا عالمية،

فهـذه بعـض ألفـاظ قبطيـة انتشـرت فـي اللغـات الأوروبيـة مثـل الواحـة (وازيس)، وكومي أي الصمغ (في الإيطالية جوما، وفي الفرنسية جوم وفي الإنجليزيـة جـم)، والسوسـن، والأيبـيس وشـيهات، وهـي منطقـة وادي النطرون (اسقيط)، ومنها اسم الناسك في اللغات الأوروبية)، والأبنوس، ولعل كلمة طوبة أي (الآجر) مثل من الألفاظ التي نعرف تاريخ انتشارها في الخارج، فقد أخذها العرب عند فتحهم لمصر من القبطية وحملوها معهـم إلى الأنـدلس فـدخلت الإسـبانية، ثـم فـتح الإسـبان جنـوب أمريكـا فانتشـرت هنـاك لفظـة (أدوبي) ثـم اتصـل الأمريكيـون الشـماليون بأمريكـا الجنوبية فدخلت الكلمة في اللغة الإنجليزية بشكلها الإسباني.

ومـن أثـر القبطيـة أيضًـا أن القديسـين كيـرلس المسـمى بالفيلسـوف وأخـاه ميتـودوس عنـدما وضـعها الأبجديـة الروسـية فـي القـرن التاسـع الميلادي أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة عن الديموطيقيـة فـي الأبجدية الروسية.

## اللغة القبطية وأثرها على العربية:

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام العربية إلا أن ذلك لم يحل دون أن تضفي شخصيتها المصرية على اللغة العربية وأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية في مصر، تظهر بمظهر خاص يختلف عنه في الأقطار العربية الأخرى، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن فـي مصـر، فمـن الكلمـات القبطيـة التـي دخلـت العربيـة أسـماء لمسميات مثل برسيم، أردب، يم، أم قويق، تليس، بقوطي، كعك، قلة،

كحة، لقمة، لبشة، ماجور، تمساح، نبوت، مقطف، نتوس، نونو، ناف، بصارة، رقاق، مشنة سلة، سمان، طورية، ذهبية، تندة، سنط، شرش، شونة، شوب، شوطة، شوربة، حلوم، خن، رمان، شوشة، شبورة، بلح.

ومن أنواع السمك: البوري، والبني، واللبيس، والراي، والشال، والشلبه، وفي لغة الأطفال كلمات قبطية مثل تاتا ومعناها يمشي، أمبو أي ماء، واوا معناها ورم، بيبه أي برغوث، ومنها أفعال شأشأ، فرفر، هلوس، هوش، لكلك، نكت، نط، فتفت، مدس (دفن)، شلشل، شن، بشبش.

وكذلك تعبيرات مثل: الورور للعجل الصغير، ولقلاق ووجبة (الساعة أو الوقت) والكأس بمعنى الألم، وتوت للحاوي بمعنى اجتمع، وليلي بمعني أفرح، ونحن مازلنا نرددها في "ليلي يا عيني"، وبح بمعنى انتهى، وكاني ماني وأصلها كاني ناني أي سمن وعسل.

ومنها استعمال أداة الاستفهام في آخر الجملة.

ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية ما نلاحظه في أسماء المدن المصرية، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة منذ تسعة قرون وهي مدة سيادة اللغة اليونانية، ورغما من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية مثل: أبولو تو بوليس لقوص، وأكسير نخوض للبهنسة، وليتو بوليس لأوشيم، وبانو بوليس لأخميم، وهرمو بوليس للأشمونيين، وهيرا كليو بوليس لأهناس، فإن السماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب، وكان ذلك لمحافظة اللغة القبطية على هذه الأسماء القديمة.

# الفصل الثالث
# الحياة الفكرية

## ١- الإنتاج العقلي والفلسفة

### الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية:

كانت الإسكندرية قد وصلت إلى درجة عظيمة من الأهمية، حتى أصبحت تعتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم الهليني النابض، وكانت مكتبتها تزخر بمن يفد إليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة، لا من بلاد اليونان فحسب وإنما من كل جهات العالم، يجلبون معهم علوم بلادهم وثقافتها، وازدحمت المدينة بأناس من شتى الأجناس والأديان والثقافات، حتى لكأنها كانت معهدًا ثقافيًا.

كان فيها المصريون الوطنيون بديانتهم المعروفة ومعابدهم وآلهتهم المصرية، وإلى جانبهم عاش اليونان بلغتهم العالمية وفلسفاتهم وآلهتهم الإغريقية والمتمصرة، والرومان بأنظمتهم وقوانينهم وثقافتهم وعباداتهم، وكان هناك اليهود يمثلون عنصرًا هامًا في المدينة ولهم فيها حي خاص ومعهم ديانتهم الإلهية وكتابهم الموحى به وتقاليدهم الموروثة، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية في المدينة لها أيضًا عباداتها وثقافتها.

وقد التقى كل أولئك في شوارع المدينة وأسواقها، وقامت مناقشات دينية وعقلية حامية وكانت تؤدي الحماسة لها أحيانًا إلى مهارك ومنازعات، كما تقابل علماء كثيرون في المكتبة وتناقشوا في خصومة حينًا وفي تفاهم حينًا آخر، وكانوا يأخذون من الحكام مساعدات مالية، وهكذا تأسست مدرسة الإسكندرية المشهورة وأخذت الإسكندرية مكان أثينا كمركز أدبي للعالم اليوناني.

ومن ذلك كله حدث لون من الامتزاج الفكري تولدت عنه أفكار وفلسفات ومذاهب جديدة، بل حدثت للتوفيق بين الأديان المتعددة في حركة عرفت باسم "التوفيق".

واليهود الذين كانوا منعزلين عن الأمم، بقيت جماعة منهم محتفظة بتقاليدها بينما اختلط الباقون بغيرهم من الشعوب، وعملوا على التقريب بين ديانتهم والفلسفات القائمة فمزجوا بين الأثنين، حتى أنه في القرن الثاني قبل المسيح كتب أرسطو بولس تفسيرًا للتوراة حاول فيه التوفيق بين تعاليمها والفلسفات المعاصرة، بل قال إن فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو تأثروا بكتابات موسى النبي واعتمدوا عليها في كتاباتهم، وفيلون الفيلسوف اليهودي الإسكندري الذي عاش في القرن الأول الميلادي حاول أيضًا التوفيق بين العقل والوحي، وتأثر بالأفلاطونية، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد.

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب أضافت إلى الأفكار المتضاربة أفكارًا جديدة، ولم تستطع أن تصل بالناس إلى الحق الواحد، بل ظل

العقل البشري حائرًا يتساءل أين توجد الحقيقة، واحتدم النزاع بين فلسفات وفلسفات، وبين أديان وأديان، وبين الفلسفة والدين، وبين العقل والإيمان.

## الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية:

وسط كل ذلك ظهرت المسيحية في الإسكندرية حوالي سنة ٦٥م وانتشرت في فترة وجيزة في مصر كلها، وكان عليها لكي تبقى أن تصمد أمام اضطهادات الحكام، وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية.

وهكذا حدثت مفارقة عجيبة في الإسكندرية، فاتخذ كل من الفريقين أسلحة الآخر ليحاربه بها، فدرس المسيحيون الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون الكتاب المقدس لمهاجمة المسيحيين، وهكذا نرى "كلسوس" و"بور فيريوس" وغيرهما يهاجمون المسيحية في تعاليمها التي درسوها في الأناجيل محاولين أن يخطئوها تاريخيًا وفلسفيًا، ومن ناحية أخرى نرى ديديموس الضرير يكتب كتابه عن "الثالوث" مستشهدًا فيه بكثير من آراء الفلاسفة والعلماء والشعراء الوثنيين.

واتهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام باتهامات كثيرة في تعاليمهم وعبادتهم وأخلاقهم، وأدى هذا الصراع إلى ظهور فئة من العلماء يدافعون عن المسيحية نذكر من بينهم أثينا غورس أحد أساتذة المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، فقد كتب دفاعه إلى مرقص أوريليوس قيصر سنة ١٧٦م.

كذلك حاول أعداء المسيحية أن يؤلفوا كتبًا على نسق الأناجيل لها أبطال، سيرتهم تشبه سيرة السيد المسيح حتى يخلطوا المسيحية بتلك الأساطير الخرافية، ومن ضمن كتب هؤلاء "حياة فيثاغورس" التي ألفها بورفيريوس وهي لا تختلف كثيرًا عن حياة أبولونيوس التي كتبها فيلوستراتوس، ورد المسيحيون على كل ذلك معتمدين على التاريخ والعلوم والفلسفة واللاهوت في ردودهم.

هذا الصراع بين الفلسفة والدين، أعني بين العقل والإيمان الذي يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل، كان من نتائجه ظهور فلسفة الغنوسية، وفلسفة الأفلاطونية الحديثة.

## الفلسفة الغنوسية

**الغنوسية وتاريخها ودارسها**: الغنوسية معناها "المعرفة" واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية "جنوسس" وقد ميز "الغنوسيون" أنفسهم بهذا الاسم عن "المؤمنين"، وغالوا في رفع قيمة المعرفة والحط من قيمة الإيمان، هم وضعوا العقل فوق الإيمان، والفلسفة فوق الدين، وجعلوا الفكر الخالص رقيبًا على الوحي، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات، وينكر المجزات والأشياء الخارقة للطبيعة، واعتقدوا أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر: روح ونفس وجسد، وقسموا الناس حسب العنصر السائد فيهم إلى ثلاث طبقات:

(ا) الروحيين وهم الغنوسيون الذين رفعتهم المعرفة إلى مستوى عال فوق المادة والحس، ويسودهم العنصر الإلهي.

(ب) الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس.

(ج) النفسانيين وهم متوسطون بين الأثنين، يمكن أن ترفعهم المعرفة إلى درجة الغنوسيين الروحيين، ويمكن أن تنحدر بهم المادة إلى درجة الجسدانيين.

وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله، وحطموا من قيمة المادة جدًا واعتبروها شرًا، فسلك بعضهم طريقة تصوفية تجاول السمو عن المادة والحس، كما انحدر بعضهم إلى الدعارة زاعمين الانتصار على الحس بالانهماك فيه، وكان الغنوسيون في مصر من النوع الأول الناسك.

ليس معنى هذا أن الغنوسيين كانوا جميعهم وثنيين، وإنما كان منهم مسيحيون أيضًا، ولكن هؤلاء نظروا إلى نزعتهم التي اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصًا روحيين، على حين اعتبروا باقي المسيحيين نفسانيين فقط غير قادرين على النهوض من الإيمان الأعمى إلى المعرفة الحقيقية، واعتبروا باقي الناس عاديين أو جسدانيين، ورأوا أن نظرية الفداء في المسيحية هدفها تخليص الإنسان من المادة والجسد، وقالوا إن هذا كان هو عمل المسيح الفدائي، ولكن لأن الغنوسية قد اشتملت على عقائد كثيرة تخالف الإيمان المسيحي فقد طردتها الكنيسة من صفوفها، وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد، واعتبرت الغنوسية بذلك الوضع هرطقة وحاربتها.

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوسية إلى أيام تلاميذ المسيح،ويرون أن سيمون الساحر الذي حرمه بطرس الرسول كان أحد مؤسسيها الأول، على أن الغنوسية لم تظهر في قوتها إلا منذ القرن الثاني الميلادي، حين انتشرت في مصر.

وقد تكونت مدارس كثيرة للغنوسية في سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفي روما وفي بلاد الغال وقرطاجنة، وانتشرت هذه المدارس على الأخص في البلاد التي كانت فيها المسيحية على اتصال قريب باليهودية والوثنية، وتفرعت منها فروع تميز كل منها بطابع خاص مثل النيقولاويين والماركونيين والمانيين، ولكن أقوى وضع ظهرت فيه الغنوسية كان على يد فيلسوفها الكبير فالنتينوس الإسكندري الذي يقول عنه "شاف" إنه أسس أكبر مدرسة للغنوسية، وكانت له فلسفة خاصة، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضع انتشرت فيه الغنوسية".

**فالنتينوس:**

هو مؤسس أعمق وأمتع الأنظمة الغنوسية وأكثرها تأثيرًا ورواجًا، كان مصري الجنسية وإسكندري الثقافة درس الغنوسية ونشرها في طابع جديد شاعري له جمال فني، وبعد أن قضى فترة في الإسكندرية ذهب إلى روما حيث قوبل بترحاب كبير، وأسس هناك مدرسة غنوسية واجتمع حوله عدد كبير من تابعيه، وكان من أوائل الغنوسيين الذين علموا في روما، وقضى بها حوالي سبع عشرة سنة، أو أكثر من ذلك على رأي بعض المؤرخين، ثم تركها وذهب إلى قبرص حيث أسس مدرسة أخرى للغنوسية لاقت

رواجًا كبيرًا حتى قال عنه القديس إبيفانوس أنه "كاد يقضي على الإيمان هناك"، واستمر هناك حتى مات حوالي سنة ١٦٠م، وكان له تلاميذ كثيرون سواء في إيطاليا أو في بلاد الشرق، ومن أشهرهم برديصان وبطليموس وهواكليون وثيودوتس، وقد نشروا تعاليمه في صور متنوعة، وقد هاجم تعاليمه من كبار رجال المسيحية في العالم، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس في أفريقيا، وإيريناوس في بلاد الغال، وإبيفانوس في قبرص وغيرهم.

## الوثائق القبطية:

عثر الباحثون على وثيقة قبطية هامة عن الفلسفة الغنوسية تدعى "حكمة الإيمان" يرجع تاريخها إلى وقت ازدهار فلسفة فالنتينوس في أواخر القرن الثاني الميلادي أو أوائل الثالث، وتسجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس، وموضوعها مقابلة خيالية بين السيد المسيح وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية، وأسلوبها شاعري مؤثر.

كما عثر سنة ١٩٤٦ في نجع حمادي على حوالي ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردي بها ٤٧ رسالة في الغنوسية، وهي محفوظة الآن في المتحف القبطي بمصر القديمة، وقد أبدى العلماء اهتمامًا شديدًا بها لأنهم يتوقعون أن تلقى ضوءً على هذه الفلسفة، وأخذوا في نشرها.

## الغنوسيون الأرثوذكس:

إذا كان قد انضم إلى الغنوسية كثير من الوثنيين واليهود أو من المسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة، فإنه قد انضم إليها أيضًا جماعة من المسيحيين من كبار معلمي الكنيسة، ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات الغنوسية بمعناها السليم الذي لا يتعارض مع الدين، وعلى رأس هؤلاء القديس اكليمنضس الإسكندري أحد مشاهير من تولوا إدارة المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، وقد وضع كتابًا مقسمًا إلى ثمانية كتب وسماه "المتنوعات" وعارض فيه الغنوسية الوثنية، وقال إن الغنوسية الحقيقية يجب أن تبنى على أسس من الإيمان والمعرفة العليا التي هي الحكمة الإلهية، ولم يهاجم الفلسفة كما هاجمها غيره من المسيحيين الذين اعتبروها خطرة على المسيحية، بل إنه أعلن أن "الفلسفة خادمة اللاهوت"، وأن الله أعطى الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتعدهم فإيمان المسيحي كما كانت الشريعة بالنسبة لليهود، وهكذا اعتبر الفلاسفة "أنبياء الوثنية"، ودعا المسيحيين إلى دراسة الفلسفة، وأخذ ما فيها من حقائق، ورأى أن الغنوسي الحقيقي يجب أن يتزود بكافة أنواع المعارف لتساعده على الإيمان وتثبته فيه، واعتبر أن جميع المسيحيين الحكماء المتعمقين في فهم الحق هم الغنوسيون الحقيقيون أو الغنوسيون الأرثوذكس.

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التعليم في المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، وسار عليه مشاهير مديريها من أمثال: أوريجانوس

وديديموس الضرير وغيرهما، ونشروه بين الجموع التي لا تحصى من تلاميذهم.

ولكن جميع هؤلاء– على عكس فلاسفة الغنوسية الآخرين– وقد وضعوا اللاهوت فوق الفلسفة، والوحي فوق العقل، ونادوا بعدم تناقض الأثنين.

## الأفلاطونية الحديثة:

وهي فلسفة جديدة ولدت في الإسكندرية على يد "أمونيوس سقاص"، وقد قدمت للبشرية فكرة إمكان الاتصال المباشر باللاهوت، وانتشرت انتشارًا عظيمًا حتى وصلت إلى جميع العقول من عقل الإمبراطور إلى عقل العبد، وانتشرت بسرعة وسط العامة الذين استطاعوا أن يتفهموها، وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها وأعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس أوغسطينوس، وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قادة المسيحية.

## أمونيوس سقاص:

ولد من أبوين مسيحيين في الإسكندرية، وكان من أسرة فقيرة، ولكنه بعد فترة من الدارسة والتأمل أنشأ مدرسة فلسفية في الإسكندرية، نشر فيها تعاليمه التي أخذها من دراسة نقدية لأفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين آراء هذين الفيلسوفين، وليس ممكنًا أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التي اشتملت عليها فلسفة سقاص، ولكننا نقول أن

الفلسفة أخذت على يديه اتجاهًا يختلف عن اتجاهات سابقيه، لأن الأفلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وإنما كانت أيضًا نظامًا دينيًا، أو كما يقول البعض إنها "حولت الهيلينية إلى لاهوت".

وقد توفى أمونيوس سقاص حوالي سنة ٢٤٣م دون أن يخلف لنا كتبًا، وإنما استطعنا أن نفهم فلسفته من كتابات تلميذه بلوتينوس (أفلوطين) وبورفير يوس خليفة أفلوطين.

ولد أفلوطين في أسيوط سنة ٢٠٤م ودرس الفلسفة في الإسكندرية لمدة أحدى عشرة سنة على يد أمونيوس سقاص، ثم ذهب إلى بلاد الفرس ليدرس ديانتهم، واستقر سنة ٢٤٥م في روما حيث أنشأ مدرسة للأفلاطونية الحديثة على غرار المدرسة الغنوسية التي أسسها هناك فالنتينوس الإسكندري، واستمر يدرس في روما حتى وفاته سنة ٢٧٠م.

وخلفه تلميذه بورفير يوس الذي وضع ٥٤ مؤلفًا شرح فيها تعاليمه، غير أن بورفير يوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة، وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة، وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيرًا من تعاليمها، ولا شك أن انتصار قادة الفكر المسيحي على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان دليلا على ما وصل إليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق في الفلسفة والعلم.

وبعد موت مرسوم ميلان سنة ٣١٣م لم تعد الوثنية هي ديانة الدولة الرسمية، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها الثقافي ممثلا في الأفلاطونية الحديثة، التي أصبحت فلسفة العصر، وانتشرت في مدارس الإمبراطورية الرومانية.

فأنشأ تلاميذ يور فير يوس مدرسة في سوريا، وذهب إلى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة ليحملوها إلى مدارس آسيا الصغرى واليونان وإلى الإسكندرية ذاتها، واستمر ذلك إلى نهاية القرن الرابع حتى كانت أفلوطين تتداول في أيدي المثقفين أكثر من محاورات أفلاطون، ومثل هذا يقال أيضًا عن مؤلفات بور فير يوس.

## ٢- مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي

### الحاجة إلى إنشاء هذه المدرسة:

انتشرت المسيحية انتشارًا سريعًا وازداد عدد المنضمين إليها، وكان من الضروري أن يوضع التعليم المسيحي على أسس منهجية منظمة، لإعطاء هؤلاء المتحولين إلى المسيحية ما يؤهلهم للمعمودية والانضمام إلى الكنيسة، وكذلك لتثقيف المؤمنين أنفسهم بمبادئ دينهم وتعاليمه، وتزويد الراغبين منهم بما يريدونه من الدراسات العليا والتعمق في فهم الفلسفة واللاهوت، وهكذا تأسست مدرسة الإسكندرية للتعليم المسيحي.

ولم تكن هذه الأسباب الإيجابية فقط هي الداعية لإنشائها، إنما كان هناك سبب آخر لا يقل عنها خطورة، ذلك أن العالم الوثني كان يقف للمسيحية بالمرصاد، يحاول بكل قواه وبكافة الطرق العلمية والعقلية والنقدية أن يقضي على هذه الديانة الجديدة، وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها، وكان لابد أن توجد مدرسة عليا تزود الكنيسة بقادة للفكر، وتقدم

للمسيحيين المعرفة الكافية التي تمكنهم من الرد على خصومهم سواء كان ذلك في مجادلات فردية أو جماعية، وكان غرض المسيحية من هذه المدرسة اللاهوتية هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم، وحماية المؤمنين مما يثيرونه فيهم من شكوك، وتبشير أولئك جميعًا بالمسيحية وتعريفهم طريق الحق.

وهكذا تركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية في المدرسة اللاهوتية، وبتطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تعدل في مناهجها وتضيف إليها مواد جديدة لتفي بحاجة العصر، وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة لطبيعة الاحتياجات التي واجهتها، والتي تطورت بها حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعارف الدنيوية والكنسية.

### تاريخ المدرسة وشهرتها:

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يوسابيوس الفيصري والقديس هيرونيموس إلى زمن القديس مرقص الرسول ويقول إنه هو الذي أسسها في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي، وعهد بإدارتها إلى تيطس الذي صار فيما بعد أسقفًا للإسكندرية، على أن شهرتها ظهرت بوضوح منذ القرن الثاني وأوائل القرن الثالث على أيدي مديريها الفلاسفة المشهورين مثل بنتينوس واكليمنضس وأوريجانوس وديونسيوس، ثم توقف نشاطها قليلا أو تعطل بعض الشيء في أواخر القرن الثالث، إذ شتت الاضطهاد أساتذتها وطلابها، إلا أنها ما لبثت أن رجعت في القرن الرابع إلى سالف مجدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرير،

واستمرت إلى أوائل القرن الخامس، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبنة في الأديرة.

وفي الواقع لم تكن مدرسة الإسكندرية هي المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم المسيحي، وإنما كانت هناك مدارس مسيحية في بلاد أخرى، ولكن لم تستطع واحدة منها الوصول إلى مثل سيطرة مدرسة الإسكندرية وتفوقها، فكانت مدرسة الإسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها في المسيحية، يأتي المسيحيون إليها من شتى الأقطار للدارسة على أساتذتها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية الهامة، وكان مدير المدرسة يعتبر الثاني بعد البطريرك في الإسكندرية، وكثيرًا ما اختير بطاركة الإسكندرية من بين مديري هذه المدرسة اللاهوتية، وقد أعطى هذا لبطاركة الإسكندرية مركز الزعامة الفكرية والعلمية في العالم المسيحي كله، إذ كان كثير من أساقفة العالم المشهورين تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدي تلاميذهم في مدرسة الإسكندرية، وظلوا بعد رسامتهم أساقفة، على صلة بأساتذتهم الإسكندريين يستشيرونهم في مشاكلهم، ولذلك لقب بطريرك الإسكندرية بلقب "قاضي المسيحية في العالم"، وكانوا يعتبرون في المجامع المسكونية حجة ومصدرًا للتعليم الصحيح.

## مشاهير أساتذتها:

قدم إلينا القرن الثاني للميلاد ثلاثة مديرين للمدرسة كانوا فلاسفة وثنيين، تعمقوا في الفلسفة اليونانية ثم درسوا المسيحية ليتفهموها أو لينفذوها، غير أنهم ما لبثوا أن آمنوا بها ودافعوا عنها، وتطوروا حتى صاروا مديرين لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وهم أثينا غوراس (سنة ١٧٦م)، وبنتينوس (سنة ١٨١م)، واكليمنضس (سنة ١٩٠م)، وقد ظل أثينا غوراس يرتدي زي الفلاسفة وهو مدير للمدرسة المسيحية.

وخلفه بنتينوس الذي نجح نجاحًا كبيرًا في إدارة المدرسة، فبدأ الراغبون في العلم والدين يقصدونها من كافة أنحاء العالم: وكان ممن استمعوا إليه تجار من الهند فأعجبوا به جدًا واعتنقوا المسيحية بحماسة عظيمة ولم يكتفوا بذلك بل حركتهم غيرتهم الدينية على خلاص مواطنيهم أن يرسلوا- بعد رجوعهم إلى بلادهم- وفدا إلى البابا الإسكندري ديمتريوس يلتمسون منه أن يسمح بإرسال القديس بنتينوس إلى بلادهم لتبشيرها بالمسيحية، فأوفده في بعثة إلى هناك سنة ١٩٠م فترك المدرسة في يدي تلميذه اكليمنضس وذهب في رحلته الموفقة إلى هناك، وفي رجوعه من الهند عرج في زيارة تبشيرية على الحيشة وبلاد العرب.

ويرجع إليه الفضل في تقديم أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه اكليمنضس الذي عاونه غي إدارة المدرسة وخلفه فيها.

## اكليمنضس الإسكندري:

وهو واضح السياسة التعليمية الجريئة التي سارت عليها مدرسة الإسكندرية المسيحية في كافة عصورها، وكان قبل تحوله إلى المسيحية فيلسوفًا وثنيًا، درس فلسفة اليونان ثم جال يطلب العلم في بلاد اليونان وإيطاليا وفلسطين ومصر وبلاد الشرق الأدنى، غير أنه لم يجد معلمًا خيرًا من أستاذه بنتينوس، وقد نبغ مثل معلمه في كافة العلوم الدينية والكنسية، وتظهر معارفه الواسعة في مؤلفاته، وفي الطابع الجديد الذي اتخذته على يديه مدرسة الإسكندرية وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين، كما فتح الباب أمام تلاميذه لجيع أنواع المعرفة، وقد وضع كتبًا كثيرة لها أهميتها الدينية والعقلية، ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب "المتنوعات" ألفه ليعارض به الغنوسية المنحرفة، ووضع فيه الأسس التي ينبغي أن يسير عليها الغنوسي الحقيقي أو الفيلسوف المسيحي، ولما ثار اضطهاد الإمبراطور سبتيموس ساويرس هجر الإسكندرية سنة ٢٠٢م تاركًا المدرسة في يدى تلميذه العلامة أوريجانوس، الذي فاقه شهرة وعلمًا.

## أوريجانوس:

لم تعرف المسيحية فيلسوفًا نابغًا مثل أوريجانوس، فهو أشهر عقلية مسيحية في مصر والعالم المسيحي كله طوال عصوره المتتابعة، وقد سار في قيادة مدرسة الإسكندرية على سياسة أستاذه أكليمنضس.

ولد حوالي سنة ١٨٥م وكان له ذكاء خارق للعادة، وقدرة عجيبة

على الاستذكار، وصبر على الدرس والاطلاع، واستطاع في سن مبكرة أن يستوعب قدرًا ضخمًا من المعلومات فألم بالفلسفة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والبلاغة، وجمع بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية، فدرس أكليمنضس الإسكندري، كما درس على أمونيوس سقاص، مؤسس الأفلاطونية الحديثة، وفي سنة ٢٠٢ وهو في السابعة عشرة من عمره، سيق والده إلى الاستشهاد في أيام الاضطهاد الذي أثاره سبتيموس ساويرس، فبينما جزعت والدته أرسل هو إلى والده يشجعه ويقول له "لا تتراجع ولا تضعف بسببنا".

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القديس اكليمنضس إلى ترك الإسكندرية، فعهد البطريرك ديمتريوس بإدارة المدرسة اللاهوتية إلى أوريجانوس وهو بعد في الثامنة عشرة، وكان هذا اعترافًا منه بما وصل إليه هذا الشاب النابغ من عبقرية فذة، وقد نجح أوريجانوس نجاحًا كبيرًا في عمله في التدريس بل صار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية.

وتوافد عليه طلاب العلم من كافة الأقطار، وتخرج على يديه أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب، كما درس عليه فلاسفة وثنيون وهراطقة واستطاع أن يجذب كثيرين منهم إلى الإيمان، وكان قدوة في الفضيلة والنسك حتى أنه لم يذق الخمر ولا اللحم في حياته، ولم يكن له غير ثوب واحد، وقال عنه يوسابيوس "أنه كان مثالا في الأعمال للفيلسوف الحقيقي: كما يتكلم، هكذا أعماله، وكما هي أعماله، هكذا يتكلم".

ولم ينثن عن التعليم مع عنف الاضطهاد، وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم صعبًا فحسب بل كان يجعله خطرًا أيضًا، ولم يكن للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يقطنون حول مسكن أوريجانوس أو يأتون إليه لتلقي العلم، وقد اشتد الاضطهاد على أوريجانوس لدرجة أنه لم يوجد في المدينة كلها أي مكان له وإنما انتقل من منزل إلى آخر وكان يطرد من كل مكان يعلم فيه نتيجة للأعداء الوفيرة التي كانت تؤمن على يديه.

وكان في أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه في السجن ويصحبهم إلى حيث المحاكمة ويتبعهم إلى مكان الاستشهاد، لا يبالي أن يكون معهم تحت سمع وبصر جلاديهم، يقبلهم ويشجعهم إلى أن يسلموا الروح، بل أنه وضع كتابًا في الحض على الاستشهاد.

أما عن إنتاجه العلمي فهو أضخم إنتاج لمؤلف، حتى قيل أنه كتب ستة آلاف مؤلف، وأقل تقدير يجعل مؤلفاته حوالي الألف، وكان يملي على عدد كبير من النساخ، وقد قال عنه هيرونيموس أنه كان يقرأ أو يملي حتى وهو يأكل، ومن أشهر الأعمال التي قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة، ومقابلتها ومراجعتها وتصحيح ما احتاج إلى تصحيح، وقد استمر في هذا المجهود الجبار ٢٨ عامًا، فوضع "الهكسبلا" أي ذات الأعمدة الستة لأنه قارن بين ست ترجمات للكتاب المقدس جمعها من أسفاره الكثيرة، كما وضع كتاب "المبادئ" وكتاب "الرد على كلسوس" وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى

وصفه الكسندر أسقف أورشليم بأنه "أستاذ الأساقفة وأمير مفسري الكتاب" ورقاه إلى رتبة الكهنوت أثناء مروره بفلسطين في أحد أسفاره.

وقد استاء من هذا العمل البطريرك ديمتريوس وجميع مجمعا حرم فيه أوريجانوس، فترك الإسكندرية وأسس مدرسة في قيسارية فلسطين على نهج مدرسة الإسكندرية، وازدحم عليه طلاب العلم هناك، وموضوع حرم أوريجانوس ما يزال حتى يومنا هذا مثار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه، على أن البطريركين اللذين خلفا ديمتريوس في كرسي الإسكندرية كانا من تلاميذ أوريجانوس، ويقال أن أولهما أعفاه من ذلك الحرم.

ويعتبر أوريجانوس أول من أقام علم اللاهوت على أسس منظمة، وإليه يرجع الفضل في تبويب عقائد الكنيسة.

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل أمتد إلى التبشير، فسافر إلى روما وإلى بلاد العرب للقضاء على بعض البدع فيها، وسافر مرتين إلى أثينا كما ذكر ذلك "هارناك".

ولما تولى ديكيوس عرش الإمبراطورية الرومانية أثار اضطهادًا شديدًا على المسيحيين، ولم ينج أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل قبض عليه سنة ٢٥٠م وسجن وعذب عذابًا أليمًا، ويقول يوسابيوس "يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس وما احتمله في صبر وارتياح من العذابات المرة والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد"، ولكنه لم يلن فأخلي سبيله بعد أن تدهورت صحته وكاد يشرف على الموت، ولم يعش

بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثًا حتى انتقل من هذا العالم بعد أن ترك فيه شهرة لا تمحى.

## ديديموس الضرير:

أما ديديموس الضرير فقد ولد في الإسكندرية سنة ٣١٣م في السنة التي وقف فيها اضطهاد الوثنية للكنيسة، وفي حوالي الرابعة من عمره فقد بصره لمرض أصابه في عينيه، فبدأ يدرب ذاكرته تدريبًا دقيقًا حتى أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه، ولما كبر بدأ يعلم نفسه القراءة بحفر الحروف على قطع خشبية يتحسسها بأصابعه، كما شهد المؤرخ سوزمين بذلك، وهكذا استطاع ديديموس الضرير أن يسبق طريقة برايل بخمسة عشر قرنًا، وتمكن من إتقان علوم كثيرة، فألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على تنوعها، كما برع في العلوم اللاهوتية ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن يعينه القديس أثناسيوس مدرسًا للمدرسة اللاهوتية بالإسكندرية.

وفي ذلك الوقت كانت الحركة الأريوسية على أشدها، وكان التعليم محفوفًا بالمتاعب بسبب تدخل الحكام المدنيين بآراء ضد الإيمان السليم مما عرض الأساقفة والمعلمين للنفي والاضطهاد، ولكن ديديموس لم تثنه اضطهادات أباطرة الرومان لبطريركه أثناسيوس الذي نفي عن كرسيه خمس مرات بل وقف يجاهد معه بكل قوته في سبيل الإيمان ضد الأريوسية التي يناصرها الأباطرة، كما حارب بقايا الوثنية الممثلة في الأفلاطونية الحديثة وسائر الفلسفات.

وقد كان مهذبًا ضد الأريوسيين والوثنيين، إذ كان كل جهده مركزًا فـي أن يقـنعهم ويحـولهم إلـى الحـق لا أن يهـزمهم، وهكـذا تحاشـى السباب، وجاءت كل كتاباته موسومة بروح الاعتدال، ومن أجل ذلك جاء إليـه كثيـر مـن الهراطقـة يلتمسـون العلـم علـى يديـه- كمـا حـدث لأوريجانوس- واهتدى على يديه كثير من أمثال أوريجانوس إلى الإيمان.

وقـد ذاع صـيت ديـديموس وامتدحـه القـديس أنطونيـوس بقولـه "لا يحزنك فقد بصرك إذ نزعت منك أعين جسدية كالتي يمتلكها الفئران والـذباب، وأحـرى بـك أن تبـتهج لأن لـك أعينًـا كالملائكـة تـرى بهـا اللاهوت وتدرك نوره"، كما امتدحه كثير من قديسي الغرب وكتابه، وكان القديس هيرو نيموس يفتخر بأنه تلميذ لديديموس وأنه اتخذه قدوة له في دراسة الكتاب المقدس كما ترجم له أحد كتبه، وممن تتلمذ على يده روفينوس أيضًا وقد تتلمذ عليه ثماني سنوات.

وهكذا استطاع ديديموس أن يعيد لمدرسة الإسكندرية المجد الذي كـان لهـا أيـام أكليمنضـس وأوريجـانوس، واسـتمر فـي عملـه كمعلـم حتـى نهايـة حياتـه سـنة ٣٩٨، وخلـف حـوالي ٤٨ مؤلفًـا قيمًـا فـي اللاهـوت والتفسـير، وكـان سـندًا لأثناسـيوس وحصـنًا فكريًـا للكنيسـة حطـم قـوة الأريوسية، وفند كل مغالطاتها العقلية.

## باقي الأساتذة:

يكتب يوسابيوس القيصري في منتصف القرن الرابع فيقول "أن المدرسة استمرت إلى أيامنا وسمعنا أنه أدراها رجال أقوياء في علومهم، وغيورون على الأمور اللاهوتية"، ويكفي أن الاثنين اللذين خلفا أوريجانوس صارا بطريركين للإسكندرية، أحدهما القديس ديو نسيوس صاحب الصيت الذائع في العرفة اللاهوتية، وثانيهما بيور يوس الذي كان نابغة في الفلسفة والعلوم اللاهوتية ويقول عنه القديس هيرو نيموس أنه "درس تلاميذه كل أنواع المعرفة بمهارة وكتب مقالات في شتى العلوم حتى لقب بأوريجانوس الصغير".

## العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية:

كانت المدرسة الوثنية قد بلغت ذروتها في العلوم والفلسفة في القرون الأولى للمسيحية، ولم تكن توجد أية مدرسة في العالم القديم تعادلها كمركز للدارسات الطبيعية والعلمية في الطب والتشريح والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى في النقد الأدبي، وإذا كانت أثينا قد تميزت بدراسة الفلسفة ووجدت فيها فلسفات كثيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى فإن مدرسة الإسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه الفلسفات معًا، تدارسها علماء يمثلون كل فلسفة اجتمعوا معًا في المكتبة والسرابيوم، بل إن الإسكندرية أنجبت "الأفلاطونية الحديثة" وتزعمت "الغنوسية" ونشرت هاتين الفلسفتين في أرجاء العالم المثقف، لهذا كله كانت هذه المدرسة الوثنية القوية منافسًا خطيرًا للمدرسة

المسيحية الناشئة التي كانت تمثل أعلى مجهود للمسيحيين في نزاعهم الفكري مع الوثنية.

ومع ذلك عاشت المدرستان جنبًا إلى جنب، كل منهما كان لها طابعها الجامعي، وكانتا كمرآة تعكس الحالة الثقافية في الإسكندرية وقتذاك، وقد أثرت كل منهما في الأخرى، مثال ذلك أن أمونيوس سقاص كان في المكتبة يحمل التعليم الذي تلقاه سابقًا عندما كان مسيحيًا، بل ربما كان اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير المسيحية، ومن ناحية أخرى، تأثر أوريجانوس بمحاضرات أمونيوس في المكتبة، واستمر مثل أثينا غوراس يلبس زي الفلاسفة حتى بعد أن صار أستاذًا في المدرسة اللاهوتية.

ولكن هدف التعليم في المدرستين كان مختلفًا، فتاريخ التدريس في المدارس الوثنية يدلنا على أن الطلبة كانوا يعدون ويتمرنون لتبوأوا مناصب الدولة، بينما لم يكن هذا من أهداف المدرسة المسيحية، وإن كان خريجوها يصلحون لذلك عن طريق غير مباشر، وبينما كان المهم في المدرسة الوثنية هو التقدم الثقافي وكان المستوى الأخلاقي للأساتذة منحطًا، فإن الحياة الفاضلة والأخلاق كانت من أبرز خواص المدرسة المسيحية سواء في المدرسين أو في الطلبة، ولعل أهم اختلاف وأوضحه هو أن الفلسفة والعلوم كانت تدرس في المدرسة الوثنية لمجرد الثقافة بينما كانت تدرس في المدرسة المسيحية لغرض ديني.

فارق آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة الوثنية كانوا من مستوى ثقافي واجتماعي معين وكانوا ذكورًا، بينما كان التعليم عامًا في المدرسة المسيحية يتلقاه السيد والعبد، الكبير والصغير، الذكر وأنثى، بغض النظر عن الدين والجنس والثقافة، وهكذا حطمت المدرسة المسيحية كل الفوارق الاجتماعية، وفتحت بابها أيضًا للفلاسفة الوثنيين والهراطقة، وازداد عدد طلبتها ازديادًا كبيرًا.

على أن المنافسة الجبارة بين المدرستين كان أثرها الفعال القوي في نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت في تلك القرون الأولى للمسيحية، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل في برامجها كل المواد التي تدرس في مناقشتها الوثنية، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمتاز به المدرسة الوثنية، وحتى يستطيعوا الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنيين.

وهكذا أدخلت الفلسفة الوثنية بشتى فروعها في منهج المدرسة المسيحية على يد القديس اكليمنضس الإسكندري الذي نادى بأن الفلسفة خادمة للاهوت، وأن الغنوسي الحقيقي من المسيحيين يجب أن يزود نفسه بكل أنواع المعارف البشرية"آخذ من كل فرع من فروع الدارسة ما فيه من الحق"، وارتقت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى أن كثيرا من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجؤون إلى أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الدنيوية واللاهوت.

وأدخل أكليمنضس دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية، وأدخل إلى جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضيات والفلك والجغرافيا، كل ذلك وجد له موضعا في منهج أكليمنضس ووجد له علاقة بدارسة اللاهوت، وسار خلفاء أكليمنضس على هذا النهج، وهكذا قال أوريجانوس عن العلوم اليونانية "يجب أن نستخدمها حتى نتمكن من فهم الكتاب المقدس، لأنه ما دام الفلاسفة قد درجوا على القول بأن الهندسة والموسيقى والشعر والخطابة والفلك كلها علوم تؤدي بنا إلى دراسة المسيحية".

ولم يكتف أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب، وإنما ساعدوا طلبتهم أيضًا على القراءة- تحت إرشادهم- في كتابات كافة المؤلفين دون أن يمنعوهم عن شيء، فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعارف ويفحصونها، ولم يرفض الأساتذة في محاضراتهم مناقشة أي موضوع يسألون فيه.

وأضافوا إلى ذلك دراسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريبًا عمليًا، وكان المدرسون قدوة صالحة لطلبتهم في الحياة الفاضلة المثالية، وما حثوهم على فضيلة إلا كانوا قد مارسوها هم أنفسهم قبلا ونفذوها.

وهكذا كان من نتائج المنافسة بين المدرستين قيام نهضة عملية وفكرية واسعة النطاق، لا نظير لها في أي بلد آخر من بلاد العالم المثقف، وأصبحت الإسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو الوثنيين، وصارت مقصد كل راغب في الدراسات العليا في شتى العلوم الدنيوية والدينية.

ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة في المدرسة المسيحية غير محدودة، فالقديس أغر يفوريوس صانع العجائب– بعد أن أكمل دراساته في الفلسفة واللغة والبلاغة في أثينا وبيروت– تتلمذ ست سنوات على أريجانوس، وكان يشتهي لو أتيح له أن يقضي بقية حياته في المدرسة.

نجحت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة، وإنما كان أساتذتها يلقون دروسهم في منازلهم أو في قاعات يستأجرونها لهذا الغرض، وكان الطلبة والأساتذة يذهبون إلى مكتبة الإسكندرية العامة للقراءة والاطلاع.

## ٣- الإنتاج العلمي والأدبي والثقافة الشعبية

### الإنتاج العلمي:

ورث الأقباط عن أجدادهم الفراعنة براعة في الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة، والهندسة والفلك، واستمروا على نبوغهم في هذه العلوم طوال العصرين اليوناني والروماني، حتى أصبحت مدرسة الإسكندرية الوثنية القديمة هي أقوى مدارس العالم في هذه الدراسات ثم تأسست المدرسة القبطية المسيحية واضطرت أن تدرس هذه المواد أيضًا، ونتج عن ذلك نهضة علمية لا مثيل لها، ونبغ من الأقباط أساتذة تخرج عليهم كثير من علماء العالم القديم.

وظهر فيهم هيروفلاس مؤسس علم التشريح، وإير يستسرا توس مؤسس علم وظائف الأعضاء، وديمو كريتوس صاحب نظرية الذرة، كما ظهر العالم الماهر كرنيليوس كلسوس الذي وضع تذكرته الطبية الشهيرة لمنع تلف الأسنان، وسرابيون الإسكندري الذي تعمق في دراسة عقاقير قدماء المصريين، ولاسيما الكريهة الطعم منها، وهو الذي قدمها للعصور المتتابعة فظلت مستعملة إلى القرن الثامن عشر.

ووضع القبط في الإسكندرية غالبية المصطلحات الطبية، ومنها مثلا كلمة medicine و medicaments دواء أو سم وApothecia مخزن الدواء، وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال مستعملة.

وهذه الشهرة التي نالتها مصر المسيحية في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت إليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أساتذتها، ومن أمثلة ذلك جالينوس العالم المشهور، الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد والذي تنسب إليه مجموعة العقاقير الجالينوسية المستعملة في العصور الحديثة، تتلمذ هذا العالم في الإسكندرية، وأخذ من جامعتها فلسفته وطبه وصيدلته.

وقد نشط العالم لدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية ولمس ما فيها من فائدة، وقد ظهر بحث للأستاذ "تل" في العقاقير الطبية يتبين منه مدى تقدم الأقباط في الصيدلة والكيمياء والطب، كما وضع الأستاذ "دوسن" سنة ١٩٢٤م كتابًا عن تاريخ الطب

عند الأقباط في القرون الأولى للمسيحية، وشرح بالإضافة إلى العقاقير أدوات الجراحة التي كانوا يستخدمونها.

ومن أهم ما وصلنا من المخطوطات الطبية القبطية بردية "شاسيناه" التي تمتاز بعلاج أمراض العيون ومداواة الخراجات وعلاج بعض أمراض النساء والأطفال، وقد وصفت كثيرًا من العلاجات لأمراض العيون وبعض القطرات والمساحيق، ومنها قطرة قابضة لمنع النزيف، ولا تقل بردية "زينون" أهمية عن بردية شاسيناه، وهذه البرديات ترينا مدى ما وصل إليه صيادلة الأقباط من معرفة بأصول فن صناعة الدواء وتحضير اللصقات، كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيميائية المختلفة وبالأخص التي تتم على النار.

ويقول "نيتو لتسكي" في كتابه الطب الشعبي المقارن، إن كثيرًا من العلاجات والمستحضرات العلاجية المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى تحمل الطابع المصري القديم، كما أن الكثير من هذه الوصفات لا زال مستعملا في مصر وفي كثير من بلدان الشرق.

ولم يقتصر نبوغ الأقباط العلمي على الطب والصيدلة والكيمياء وإنما برعوا في الحساب والرياضة أيضًا، وليس أدل على ذلك من أنهم تولوا الأعمال الحسابية والمالية والإدارية طوال العصر الإسلامي، بل ظلوا إلى عهد قريب يشغلون غالبية وظائف الدولة في هذا الميدان.

ولم يقل نبوغهم في الهندسة وأعمال البناء عن نبوغهم في الطب والحساب، وتشهد على ذلك الكنائس الفخمة التي بنوها والأديرة ذات

الأسوار والحصون الضخمة، وليس أدل على ذلك من آثار "أبامينا" بمريوط، والديرين الأبيض والأحمر في منطقة سوهاج، وغير ذلك من الآثار المعمارية الكثيرة الدينية وغير الدينية، بل إن هذا النبوغ استمر معهم فقد ذكر "الأزرقي" في كتاب أخبار مكة أن الكعبة طغى عليها قبيل ظهور الإسلام سيل عظيم صدع جدرانها، فأعادت قريش بناءها مستعينة في ذلك بنجار قبطي كان يسكن مكة، وأثبتت الأوراق البردية التي عثر عليها في مصر أن الوليد استعان بالقبط في بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى، وقصر أمير المؤمنين هناك، ويذكر "البلاذري، في فتوح البلدان أن الوليد استعان بالقبط في إعادة مسجد المدينة".

ولما أعاد عمر بن عبدالعزيز بناء الجامع النبوي في المدينة عهد بذلك إلى معمارين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف في الإسلام، وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة، وأثبت العلماء أن قصر المشتى في شرق الأردن الذي يرجع بناءه إلى منتصف القرن الثامن الميلادي قد تأثر في زخارفه بالزخارف القبطية وفي تخطيطه بتخطيط الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج، وتتجلى البراعة في بناء مهندس قبطي هو سعيد ابن كاتب الفرغاني لجامع ابن طولون مستخدما في ذلك عمودين فقط بعد أن قال المهندسون لابن طولون إذ ذلك العمل يحتاج إلى ما لا يقل عن ٣٠٠ عمود، وبين "كريزويل" الأثر القبطي على فن العمارة الإسلامي المتقدم في مقال له نشره في مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٩.

ومن آثارهم في الفلك حساب الأبقطي الذي وضعه في القرن الثاني للميلاد الأنبا ديمتريوس بطريرك الإسكندرية، وصار الأقباط هم الذين يعد إليهم بتحديد الأعياد والأصوام للعالم المسيحي كله، ومثال ذلك أن مجمع نيقيه سنة ٢٢٥م فوض لبطريرك الإسكندرية تحديد التاريخ المضبوط لعيد القيامة بعد أن تضاربت أقوال علماء المسيحية في ذلك.

## صناعة الورق:

وجدنا من مخلفات العصر القبطي الكثير من البرديات التي تثبت أنهم أجادوا صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة، وقد استغل المصري هذا الورق أحسن استغلال في تدوين علومه وآدابه منذ أقدم عصور حضارته.

فالمصري في كل عصوره- إذا ما تناول الفن أو العلم- أظهر ثباتًا على مصريته ومحافظة على تراثه، وذكر الأستاذ "جوجيه" في معرض كلامه عن مدرسة الإسكندرية في مقال له عن عصر الانتقال في مصر من اليونانية إلى القبطية ما ترجمته "لقد سعى الإسكندر الأكبر سعيه ليصبغ الروح المصرية بالصبغة الهيلينية، واقتفى البطالمة أثره في ذلك، وحاولوا جهدهم أن يستميلوا المصريين ويضفوا على الفكر المصري مسحة يونانية بحتة، وقد ثابروا في هذا السبيل مدة ستة قرون يحاولون فيها الوصول إلى غرضهم، وخيل إليهم أنهم نجحوا في الوصول إلى هدفهم لما رأوا المصري وقد شغف بمختلف أنواع الثقافات، يأخذ منها أينما وجدها، ويستمتع بالفن حيثما يلقاه، ولكن المصري له قدرة عجيبة

على تكييف الفنون وفق مزاجه، ويستسيغ العلوم بحب ذوقه وهو– بعد هذا كله – مصري تأصلت جذوره في هذه التربة التي ازدهرت فوقها حضارته العريقة، فالمصري – مع كل ما يهضمه من علوم وفنون غريبة – فخور بماضيه، شغوف ببلاده، فهذا الفخر وهذا الشغف متأصلان فيه إلى حد بعيد الغور، فهو ثابت في مصريته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه أو تحويله عنها مهما تنوعت المؤثرات".

نضيف إلى كل هذا أن أقباط مصر وبطاركتها ظلوا عمد التشريع الكنسي طوال القرون الأولى للمسيحية وكانوا يعتبرون حجة في تنظيم قانون الكنيسة للعالم المسيحي.

## التاريخ الكنسي:

### ١- تاريخ بطاركة الإسكندرية:

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول العالم في نواحي الحياة كلها مجتمعة إبان عهود الفراعنة، وكانت المعبودات المصرية في دلالتها تنم عن فكر سام رفيع، إذا قيست بمعبودات الشعوب الأخرى، بل استعارت البلاد الأخرى أحيانًا المعبودات المصرية لعبادتها.

فلما دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها، غدا للكنيسة المصرية نفس المركز الديني الرفيع بين كنائس العالم، وساعد على ذلك ما عرف عن علماء مصر من تعمق في معارفهم وعلومهم، ولما أخذ الجدل الديني يشتد ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادي، عقدت المجامع العالمية

(المسكونية) بدعوة من أباطرة الدولة البيزنطية، وكانت رئاسة تلك المجامع– التي حضرها أساقفة مندوبون عن كنائس العالم المسيحي كله– تسند في أغلب الأحيان إلى بطاركة الكنيسة المصرية.

هكذا كان لبطاركة الكنيسة المصرية مركز سام في العالم أجمع، وكان الأباطرة المسيحيون يجلونهم ويلتمسون بركتهم ويقيمون لهم وزنًا، لأنهم كانوا زعماء يمثلون قوة شعبية جبارة، طالما أقضت مضاجع أولئك الأباطرة.

ومن ثم كان التأريخ لهؤلاء البطاركة– الزعماء الشعبيين– أمرًا هامًا للغاية، فقد اشتركوا في الحوادث السياسية التي دارت والتي كان لها طابع ديني على الأغلب، فقد يحدث أحيانًا أن يعتنق الإمبراطور الروماني مذهبًا دينيًا معينًا في نطاق المسيحية، ويريد أن يرغم رعيته في أنحاء إمبراطورته على اعتناق مذهبه حتى يضمن بذلك التجانس بين شعوب الإمبراطورية تبعًا لوحدة المعتقد، فيسبب هذا بين الشعب والحاكم الصدام والحروب والثورات، وكان البطاركة بحق زعماء شعبيين في تلك الأوقات العصيبة، قادوا الشعب ولم يعبئوا بالحديد والنار، واضطروا أولئك الأباطرة أن يحنوا الرؤوس لهم إجلالا واحتراما، فأرخ الناس لهم ولعصرهم، حتى لتستطيع أن تلم بالكثير من التقاليد والعادات المصرية، بل وبنواحي الحياة المختلفة من مجموع هذه التراجم التي تظهر لنا روح العصر الذي عاش فيه هؤلاء البطاركة.

## المصادر التاريخية لسير البطاركة:

عرض مؤرخون كثيرون لسير بطاركة الكنيسة المصرية ولعل من أشهرهم:

### (أ) يوحنا النقيوسي

في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، كتب تاريخًا يبدأ بخلق العالم إلى ما بعد الفتح العربي لمصر بزمن يسير، ويحوي تاريخه أخبارًا متصلة عن الآباء البطاركة من مرقص الرسولي الذي بشر بالمسيحية في مصر في القرن الأول إلى البابا بنيامين البطريرك الذي عاصر الفتح العربي.

### (ب) ساويرس بن المقفع:

أسقف الأشموني (مركز ملوي) عاش في النصف الأخير من القرن العاشر وأوائل الحادي عشر وعاصر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وضع كتابا أسماه "تاريخ البطاركة" ويعتبر تاريخه أهم مرجع بين هذه التواريخ جميعها، وذلك نظرًا لما أمتاز به هذا الأسقف من العلم الغزيروتمكنه من اللغات القبطية واليونانية والعربية: بل لعله أول كاتب صنف مؤلفاته باللغة العربية من بين الأقباط، وقد جمع تاريخه من عدة مصادر قديمة عثر عليها في الأديرة أو عن مصادر نقلت عنها وقد أرخ ساويرس للبطاركة من مرقص الرسولي إلى البطريرك يوساب الأول (٨٣٠ – ٨٤٩)، وقد ذكر ساويرس أنه ترجم هذه السير إلى العربية من

مخطوطات قبطية ويونانية ترجع إلى عصر المؤرخ له أو بعده بقليل، ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأصول قد خرج من مصر، وهي موجودة الآن في المكتبات الكبرى في العالم، ويقوم العلماء بنشرها تدريجيًا.

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة تاريخية عن خصائص العصر الذي عاش فيه البطاركة أصحاب الترجمات، وقد نقل المقريزي عن هذا الكتاب جانبًا كبيرًا مما سجله في كتابه "الخطط" كما أخذ عنه أيضًا القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى".

وقد ترجمه "إيفتس" ونشره بالعربية مع ترجمة إلى الإنجليزية في مجموعة الآباء الشرقيين.

### (ج) الأنبا ميخائيل أسقف تنيس:

عاصر الأنبا ساويرس بعض الوقت وزاملة في جمع تواريخ البطاركة من الأديرة، وأرخ للبطاركة من خائيل الثالث (٨٨٠ – ٩٠٧م) إلى سانوثيوس (١٠٣٢ – ١٠٤٦).

### (د) الأنبا يوساب أسقف فوة:

من رجال القرن الثالث عشر الميلادي، وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير معاصريه.

وقد أكمل تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء كثيرين من مصر وغيرها.

وتعتبر تواريخ البطاركة حلقة هامة في تاريخ مصر العام.

### ٢- السنكسار:

وهو الكتاب الذي يضم الآباء القديسين، ويحوي قصصًا دينيًا يصور لنا النواحي الاجتماعية في العصر الذي عاش فيه الآباء أصحاب التراجم، فهو بذلك يكمل التاريخ ويساعد على فهمه، وقد نشره "باسيه" بالعربية مع ترجمة فرنسية، ثم نشره "أوليري" مرتبًا بحسب الحروف الهجائية.

وثمة كتب أخرى تكمل السنكسار وتفسره، وأشهر من دونواسير الآباء "بلاديوس" الذي كتب سير الرهبان المصريين، وأثنا سيوس الرسولي بطريرك الإسكندرية في القرن الرابع، الذي كتب سيرة القديس أنطونيوس، والقديس "جيروم"، وجيروم هو الذي دون بدوره سير القديسين والشهداء المصريين، وقد نشرها في مجلدين العلامة "بدج"، كما وضع القديس يوحنا كسيان (القرن الرابع) عدة كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين نشرها "لوشانوان" بعد ترجمتها إلى الفرنسية، كما نشرت ترجمة إلى الإنجليزية في المجلد الحادي عشر من موسوعة "آباء نيقيه وما بعد نيقيه".

### ٣- تاريخ المجامع:

أرخ الأقباط- بطابعهم القبطي الخاص- للمجامع المحلية والعالمية، مما كان له أكبر الأثر في المحافظة على هذا التاريخ.

### (أ) المجامع المحلية:

وكانت تعقد في مدينة الإسكندرية برئاسة البطريرك، للنظر فيما يهم الكنيسة بوجه عام وحل المسائل المختلفة التي كانت تطرأ.

### (ب) المجامع العالمية (المسكونية):

وكانت تعقد في القسطنطينية أو في مدينة تتوسط أنحاء الإمبراطورية، وكان الإمبراطور البيزنطي هو الذي يدعو لانعقادها للنظر في البدع الدينية التي تظهر في إقليم من أقاليم الدولة، وكان أعضاؤها مندوبين يمثلون جميع الكنائس في العالم المسيحي، وعلى المجمع أن يتخذ القرارات التي تدحض تلك البدع من جهة وتقوي الإيمان من جهة أخرى، وقد شغلت الخلافات المذهبية حيزًا كبيرًا في تاريخ الدولة البيزنطية أنهكت قوتها ومزقت أوصالها، ولذلك تؤلف تلك المجامع فصولا رئيسية في تاريخ الدولة البيزنطية.

وفي التاريخ العام كان للأقباط إنتاجهم الكبير الملحوظ فيما وضعوه من مؤلفات عديدة بالنسبة إلى التاريخ الكنسي، وكذلك بالنسبة إلى التاريخ المدني، ومن أشهر الكتب التي ألفت في هذا المضمار الكتاب الذي أرخ فيه يوحنا النقيوسي للعالم من بدء الخليقة إلى الفتح الإسلامي، ويعتبر الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر.

**يوحنا النقيوسي:**

كان معاصرًا لفتح العرب لمصر، كان في بدء حياته راهبًا عرف بالتقوى وكثرة العلم وحسن السيرة، فرسم أسقفًا على نقيوس (ومكانها الآن قرية بشادي بمحافظة المنوفية)، ثم رقي رئيسًا لأساقفة الوجه البحري، ثم عين في شيخوخته سنة ٦٩٤م مدبرًا لأديرة وادي النطرون، وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة، فقد حكم الأساقفة بوقفه عن مباشرة عمله الكهنوتي بسبب عنفه الشديد في تأديب راهب على خطيئة أرتكبها.

وقد خلف لنا كتابًا هامًا أرخ فيه من بدء الخليقة إلى ما بعد دخول العرب مصر بقليل، وكتابه مقسم إلى ٢٢ بابًا، الأحد عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربي حيث تكلم عنه بتفصيل وإسهاب، ويعتبر الكتاب هو المرجع الأول والأصيل في هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه عيانًا بنفسه.

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم إلى العربية والحبشية وربما إلى اليونانية أيضًا، ولكن لم يصل إلينا غير الترجمة الحبشية.

ويدل الكتاب على وصل إليه يوحنا النقيوسي من علم غزير وتعمق في البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة، كما تظهر فيه الحرية التي توخاها الكاتب في سرد التاريخ.

وليس صحيحًا ما ذكره زوتنبرج الذي نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبيته باليونانية على حين وضعت الأخبار المحلية بالقبطية.

١- لأنه من المستبعد على كاتب قبطي متمسك بقوميته أن يكتب لمواطنيه تاريخ العالم بلغة مضطهديهم الروم.

٢- كانت اللغة اليونانية قد أخذت في الانقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الأنبا شنودة.

٣- صيغة أسماء الأعلام في النص الحبشي تدل على أنها أخذت عن أصل قبطي.

وقد ظل الأقباط يحملون لواء العلوم إلى ما بعد دخول العرب مصر بقرنين، وظهر فيهم كيرلس وكولوتس ويؤانس، وعرف في القرن السادس يوحنا فيبيبونوس النحوي الذي ألف في الأدب والطب والرياضة، ومن المعروف أنه منذ القرن السادس كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم في المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، ونذكر من بينهم سرجيوس وهارون القس.

وقد ورثت الدولة الإسلامية فيما بعد كثيرًا من هذا التراث العلمي في حركة الترجمة التي قامت بها، فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينتقل إلى العربية كثير من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، وتبعه في هذا المضمار كثير من خلفاء وولاة المسلمين، وكان استقرار الخلافة في بغداد وازدهار العلوم فيها باعثا

على انتقال العلماء من مصر إلى الشرق، ويقول "المسعودي" في مروج الذهب أن مجلس التعليم (الجامعة) نقل من الإسكندرية في أيام عمر بن عبدالعزيز إلى أنطاكية، ثم نقله المتوكل إلى حران.

## الإنتاج الأدبي والثقافة الشعبية

المخلفات الأدبية المؤلفة بالنثر: وتشمل فروعًا كثيرة أهمها:

### ١- ترجمة الكتاب المقدس:

وهي في الدرجة الأولى من أدبيات اللغة القبطية، وقد أخذت هذه الترجمة عن اليونانية منذ القرن الثاني، وتعتبر من أدق الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا ملمين إلمامًا تامًا باللغتين، وقد كانت الحماسة الدينية بالغة حتى أنه لم يحل القرن الرابع أو الخامس إلا وكان الكتاب كله مترجمًا إلى اللهجتين البحيرية والصعيدية وبعض أجزاء منه إلى اللهجتين الأخميمية والفيومية.

### ٢- أقوال الآباء:

وهذه اشتملت على فروع كثيرة منها: الأقوال الكنسية التي كتبها آباء الرهبنة أو سمعت عنهم فسجلت، وكلها تحض على النسك والتجرد من العالميات وعلى الترويض على الفضيلة وتنقية النفس، ومن أمثلتها الرسائل العشرون التي أرسلها القديس أنطونيوس إلى تلاميذه، والأنظمة التي وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرعبان، وما خلفه القديس يوحنا التبايسي من ميامير (مواعظ) عميقة في الحياة الروحية،

وكذلك تشمل المواعظ والخطب الدينية التي كانت تلقى في أيام الآحاد أو الأعياد أو بعض المناسبات الأخرى، ومن أشهرها خطب الأنبا شنودة في أثناء كفاحه ضد الوثنية وفي نشره لتعاليم المسيحية، وإليك مثل في موعظة للأنبا شنودة (القرن الرابع).

"زعموا أن بعض الشهداء ظهروا لبعض الناس وكشفوا لهم عن الأماكن التي دفنت فيها عظامهم، وعند البحث وجدوا أنها بقايا كلاب، وزعموا أيضًا أن بعض المباني والتوابيت التي كان يكشف عنها خلال أعمال البناء أو الهدم كان بها ما يدل على أنها تضم أجساد الشهداء، إنما هي الشياطين التي كانت تظهر لهؤلاء الناس في أحلامهم في ثياب الشهداء، وبذلك كانت تبني لهم هياكل في الكنائس، وليس لمثل هذه الهياكل من أثر إلا أنها تفقد إليها كل الحقيقة قيمتها.

وأنها إذن لمجازفة عظيمة أن تبني الهياكل على عظام لا يعرف كنهها أو مصدرها، وعلى كل حال ليس هناك في الأناجيل أية إشارة تدعونا إلى بناء الهياكل، حتى فوق الرفات الحقيقية للشهداء أو الرسل.

ثم قال: إن آبائنا الذين رقدوا في أيامنا– كما أعلم وأشهد– يوصوننا أن لا ندع إنسانًا يبحث عن أجسادهم، ويجب أن يصبح المرء قطعة من الطين ممزوجة بالتبن تدوسها الأقدام".

ومع أن الآباء كانوا قلما يكتبون، اكتفاء بتحقيق الهدف العملي وهو التسامي في ممارسة الفضيلة، إلا أن ما وصلنا منهم كثير في قدره وفي قيمته.

### ٣- سير القديسين:

وهي كثيرة جدًا تزخر بوصف حياة وجهاد الشهداء والرهبان والمتوحدين والنساك وبعض الآباء البطاركة والأساقفة، ولم تكن هذه السير مجرد تاريخ جارف، وإنما كانت موضوعة في أسلوب أدبي عميق بالغ الأثر حتى كان من نتائجها إقبال كثيرين على الرهبنة وعلى السير في الحياة الفضلى، وهي في الواقع تجسيم لفضائل معينة يمثلها هؤلاء القديسون الذين كتبت سيرهم مع لون من الإيحاء في الكتابة.

### ٤- القصص:

وبعضه ديني فيه خيال وتصور مثل قصة ملكة سبأ ومقابلتها لسليمان الحكيم أو قصة الملك يوحنا ورئيس الدير، والبعض وطني نفس به الأقباط عن شعورهم القومي الذي ظل مكبوتًا فترات طويلة تحت نير المستعمر.

وليس الأدب القبطي أدب ديني فحسب بل أن الآثار الأدبية الدنيوية في الأدب القبطي لا تقل روعة عن الآثار الدينية.

وقد وصلتنا بعض آداب دنيوية بالرغم من انصراف القبط في العصور الأولى عن تدوينها لغلاء ورق البردي أو الرق وقصرهم التدوين على أدب الدين تقريبًا.

فقد عثرنا على الكثير من الرسائل والوثائق بالقبطية استقينا منها أغلب معلوماتنا عن الحياة في الأديرة ومدى نشاطها.

وازدهر الأدب القبطي في القرنين الرابع والخامس ثم كبا من أثر الاضطهادان، وكان فتح العرب لمصر صدمة عنيفة للأدب القبطي إلا أنه صحا صحوة كتلك التي تعقب تجرع السم، ففي النصف الأخير من القرن السابع وفي القرن الثامن قامت بين القبط نهضة أدبية ثانية لها طابع الشعبية والدنيوية أكثر من النهضة الأولى وربما يرجع ذلك إلى أن نظام الأديرة وقتئذ كان أقل صرامة بحيث أتيح للرهبان الاشتغال بشتى الحرف، وإذا كانوا قد أصبحوا يقرأون الكتب الدنيوية في الأديرة فما الذي يمنعهم من كتابتها وبخاصة أن الورق قد حل محل ورق البردي وأصبح في متناول الجميع.

وكتب ذلك الأدب الجديد باللهجة الصعيدية، وكان به أشعار وروايات وبالرغم من ذلك فقد وصلنا منه النذر واليسير، ونشير إلى بعض هذا الأدب الدنيوي، فقصة ثيودوسيوس وديونسيوس التي ترجع إلى أوائل القرن الثامن بطلها صانع مصري، وفق إلى بلوغ منصب إمبراطور اليونان، وقد نسى زميلا له كان صانعًا مصريًا، ثم يلقاه ثانية ويعينه رئيسًا لأساقفة العاصمة اليونانية.

وكذلك وجدنا بعض أجزاء لقصة الإسكندر مترجمة إلى الصعيدية وربما أوحت هذه القصة إلى كاتب قبطي بكتابة رواية قمبيز.

ورواية قمبيز قصة أصيلة بالقبطية تتضمن تاريخًا خياليًا بحتًا عن غزو مصر على يد قمبيز الذي كان ملكا على الفرس، وتبدأ القصة برسالة يكتبها قمبيز إلى الشعب الذي يسكن مصر طالبًا إليهم الطاعة يقول:

أنا قمبيز، لم أكتب إليكم لإرغامكم، ولكني أود زياراتكم، لا حرج عليكم إذا أردتم الحضور، بل تعالوا إلي، أنا الذي سيمنحكم أمجادًا أكثر مما تتمتعون به الآن، وربما حدثتكم نفسكم بعدم الخضوع لي، فحينئذ تكونون قد وضعتم ثقتكم في هؤلاء الناس السائرين إلى الدمار وهم ملوك مصر وعشائرهم المتنقلة- إنهم سوف لا يقدرون على تخليصكم من قواتي وآلاتي الحربية، وطالما كانت لي تلك القوة فلن يستطيع أحد أن ينقذكم من غضبي.

ثم يستطرد على اعتبار أنهم سيرفضون الخضوع ويردف: انظروا أنا قمبيز أكتب إليكم هكذا الآن، كونوا مستعدين لملاقاة جام الغضب الذي سينصب على رؤوسكم جزاء عصيانكم لي، إنني سيد الأرض كلها وما أكتبه سيعود عليكم بالويلات حين اقتص من مصر، فلما سمعوا ذلك وعلموا أن قمبيز قادم إليهم اشتد حنقهم وثبتت عزيمتهم وتشاوروا فيما يفعلون، ثم استقر رأيهم على رفض طلب قمبيز بالخضوع للفرس.

ولما سمع الجند بهذا الحديث أرادوا أن يذبحوا الرسل، وكان بين الجند شخص يدعو يوشهور، وكان رجلا ذكيًا في نصحه، حكيما في حديثه كما كان قوي الشكيمة ومغوارًا في الطعن والنزال مما أهله لإسداء النصح إليهم، بأن يصرفوا الرسل ويبعثوا برسالة تهديد إلى قمبيز هذا نصها: يكتب هذا جميع المصريين إلى أولئك الذين يقطنون أقاليم الغرب والذين يعيشون في الهند، نكتب إليك أيها الجبان الرعديد قمبيز، الذي اسمه في لغتنا "سانوت" وتفسيره الجبان، ألا فانظر، لقد تركنا رسلك

تذهب بسلام لا خوفًا منك بل افتخارًا وتعظيمًا لسيدنا فرعون الذي يحكمنا بمجد عظيم، لقد تركناهم وشأنهم ولم نذبحهم، ولكن إذا أثرتم سخطًا فلسوف تعلمون ما نحن فاعلون، فبحق قوة فرعون ومجد مصر والإله هابي وشرف التاج وبطش صناديدنا واحتشاد جيشنا في القتال، فما دام الإله هابي في منف، وآمون في تفناس، وما دام ملوكنا يعيشون في مملكته وما دامت الأنهار تفيض بمياهها، وما دامت مدننا موطدة الدعائم، وما دام كل ذلك قائمًا، فلسوف تعلم أيها العبد ما سيحل بك، ماذا أنت فاعل حيال ذلك، سنوردك موارد التهلكة لو لحقنا بك، فأولا سنخرج أمعائك من بطنك ونذبح أولادك أمام عينيك، وسنلقي بأتباعك الظالمين خارجا، وسنحرق آلهتك المرافقين لك، وأما أنت فلن نضيع الوقت في طهي قطع من لحمك، بل سنمزقه بأسناننا كما تفعل الديبة والسباع الضارية، والآن أيها التعس، تدبر أمرك وأرعو، وفكر مليا فيما أنت مقدم عليه قبل أن ينصب عليك غضب مصر، فمن من الملوك– ليس بين الأشوريين فقط بل بين ملوك العالم أجمع– تعالى على مصر بعد التغلب عليها؟ فهل تطمع أنت في التغلب عليها أيها المخلوق الدنس؟ ألا امتثلت بالملوك الجاليين والحيثيين، وأولئك الذين يقطنون الأقاليم الغربية والأقاليم الباردة، أليسوا جميعًا على جانب عظيم من القوة والجاه؟ فلماذا لم ينجوا ببلادهم من قبضة مصر عندما تعاظموا لكي لا يصيروا عبيدًا لنا؟ يا لسخرية القدر أن تهاجم أنت مصر، فسيلحق بك العار على أيدي جحافل مصر؟ من هو إلهك الذي يرافقك والذي سينجيك بقوته وعليه تعتمد على الأمونيين والمؤابيين والأدوميين،

أولئك الذين ترتعد فرائضهم قبل أن يروا حربًا؟ أولئك الذين لم ينعموا بالسيادة قط، بل كتب عليهم أن يظلوا دائمًا أرقاء.

ولما عاد الرسل سلموا رسالة المصريين طلب قمبيز مشيريه فأشار عليه أحدهم:

أيها الملك فلتعش إلى الأبد استمع إلى نصيحة عبدك: لا تهاجمهم ولا تلتق بهم وجهًا لوجه وإنما يجدر بك أن ترسل رسلا إلى جميع أنحاء مصر باسم فرعون وهابي إلههم بكلمات معسولة يناشدون بها الشعب أن يجتمعوا في عيد ووليمة ملكية دون سلاح حتى تنتفي من نفوسهم فكرة الحرب، فإذا ما اجتمع شملهم، فسيرى سيدهم أن سيدًا آخر قد صار بيده الأمر فيستولى عليه الجزع وتخضع لك البلاد، ثم يتابع نصائحه مبينا صفات المصريين الحربية، وكيف أن نساءهم ماهرات في الرماية وأطفالهم يشبون من الصغر على تعلم فنون الحرب، وإذ يجد هذا الكلام قبولا لدى قمبيز فإنه يوفد رسلا إلى جميه أنحاء مصر ينادون باسم فرعون وخفرع: سلام كثير لكم ولتكونوا في راحة وطمأنينة إنني أمتب عليكم لا عن الضرائب التي أنتم مدينون بها ولا عن أي شيء آخر من هذا القبيل، أيها المصريون الأخيار، الأشداء في قوتكم والحكماء في كلامكم، لتتجمعوا في كل مدينة ولتأتوا إلي بدون سيوف أو حراب، فأنتم مدعون إلى وليمة حيث السرور والابتهاج، لأن الإله هابي هو الذي يطلب تجمعكم حتى تطيب نفوسكم بهذا الاحتفال، فقد أفضى إلينا بأمور خاصة ستحدث هذا العام ولم أشأ أن أكتب إليكم بشأنها حتى لا

تقللوا من أهميتها، بل فضلت أن تحضروا بأنفسكم إلى هابي كيما يظهر لكم هذه الأمور في رؤيا، فلن يتيسر لكم معرفتها إلا إذا ساهمتم في هذا العيد، ومن امتنع عن الحضور ستصيبه اللعنة والغضب من هابي، وأما من يلبي ويحضر فستحل نعم الإله عليه وعلى أهل بيته.

وتمضي القصة فتظهر كيف أن المصريين لم ينخدعوا بتلك الحيلة وعرفوا أنها من أعدائهم فيحشدون الجيوش وتأتي الأخبار بأن قمبيز بدأ هجومه على مصر ويبدو أن المصريين كانت تكتنفهم صعاب في ذلك الوقت.

وهنا ينقطع سياق القصة التي وصلتنا منها نسخة واحدة ناقصة وبها عيوب كثيرة.

ومهما يكن من شيء فالقصة تدل على وطنية رائعة من الحكام الرومان أو العرب يتنفس منه الكاتب في أسلوب روائي أدبي مستور.

وهناك آثار أدبية كثيرة منها مثلا القصيدة التي كتبت عن أرخليدس وأمه سنكليتكي على طريقة الحوار، ولم يصلنا منها إلا بعضها.

ويدل كل هذا على ما للقبط من أثر عميق في الأدب في العالم كانت صفحاته مطوية، وكلما أظهرت لنا الكشوف الحديثة من نصوص، تكشف لنا هذا الأثر وعرفنا مقدار تغلغله في الآداب العالمية.

## ٥- الإصلاح الاجتماعي:

تظهر روح الإصلاح في خطب الأنبا شنودة التي حارب بها البدع الموجودة في عصره كالدجل الطبي والسحر وفوضى الموالد وبناء الهياكل على أجساد الشهداء وما إلى ذلك.

## ٦- أغراض أخرى:

مثل الآداب الكنسية وطقوس العبادة ونصوص أخرى تتعلق بالتاريخ والقوانين والسحر.

## النظم:

لم يصل إلينا شعر كتبه الأقباط في الأغراض الدنيوية المختلفة إذ كان النسك السائد في تلك العصور الأولى المسيحية يحول دون ذلك، فقد اتجهوا في المدح إلى الملائكة والعذراء مريم والأنبياء والقديسين والشهداء في نظم يعرف باسم الذكصولوجيات وهي كلمة معناها "تمجيد"، وقد جمع الكثير منها أوليري سنة **١٩٢٤** في كتابه المسمى "الألحان القبطية"، أما مدح العذراء مريم فلكثرته اختص به تقريبًا باب اسمه الثيودوكيات، وقد نشر "أوليري" سنة **١٩٢٣** كتابه المسمى "الثيودوكيات القبطية" جمع فيه كثيرًا من المقطوعات الشعرية القبطية التي وجدها في دير القديس مقاريوس والمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطاني، وقد قال أن هذا النوع من النظم كان مستحبًا لدى الشعراء الأقباط استغلوا فيه مواهبهم، كما ذكر "مالون" أن هذه الثيودوكيات لها مكانة عظمى في الآداب القبطية.

وقد كان القصص من بين الأغراض التي طرقها الشعراء الأقباط أيضًا، ومن أشهر القصص الشعرية قصة أرشيليديس الراهب الذي رفض مقابلة أمه وفاء لنذر قطعه على نفسه ألا يرى امرأة، وهي قصيدة طويلة جدًا على شكل حوار تظهر فيه براعة التمثيل وقوة التأثير، والقصيدة تمس ناحية حساسة من المشاعر الإنسانية.

ثم هناك الأشعار الكنسية وهي صلوات أو تأملات مأخوذة من المزامير أو الإنجيل وتسمى إبصاليات (وهي مأخوذة من الكلمة القبطية بصالموسي بمعنى مزمور) والبعض الآخر تسمى الهوسات (وهي مأخوذة من الكلمة القبطية هوس بمعنى تسبيح) وقد اختصوا كل يوم بتسبيحة خاصة منظومة وملحنة بلحن خاص، وتوجد غالبية هذه القطع الشعرية في كتابين هما الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية.

## الندب:

عرف الشعب المصري منذ أقدم عصوره ندب الميت، وقد وصلنا من العصر القبطي الكثير من الندب في نظم نقش أحيانًا على الرخام كشواهد للقبور.

وتظهر لنا عادة الندب من قصيدة أرشيليديس وأمه سنكليتكي التي تدعو فيها النساء للندب "أيتها النساء" يا كافة من أنجبن أبناء، تجمعن، وابكين معي" وقد نشرت "ماريا كرامر" كتابا فيه الكثير من منظومات الندب القبطية.

وكانت موضوعات الشعر تنطوي على كثير من المعاني الأدبية

والحكم التي يمكن إرجاعها إلى التأثر بنظائرها في الأمثال المصرية القديمة وفي أمثال سليمان الحكيم وباقي يفضل هذا اللون من الأدب منذ العصور الفرعونية وأن تضمن الحكمة في شعره كان أصيلا وليس نتيجة لاعتناق المسيحية.

### لغة الأدب:

ينقسم الأدب القبطي إلى قسمين:

### (أ) أدب قبطي متأثر بتأثيرات يونانية:

وقد ظهر أكثر في الإسكندرية التي انتشرت فيها الثقافة الهيلينية، حتى اضطر كثير من الآباء إلى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة في العالم وقتذاك، وترجمت كتاباتهم في مصر إلى القبطية لينتفع بها الأقباط أنفسهم.

### (ب) أدب قبطي صميم:

كالذي ظهر في كتابات الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس اللذين لم يعرفا غير القبطية، وخطب ومواعظ الأنبا شنودة الذي لم يشأ أن يكتب بغير القبطية، كما كان زعيمًا شعبيًا يكلم الأقباط المضطهدين على يد حكامهم بلغتهم القبطية لا باللغة اليونانية لغة الحكام.

وهذا الأدب القبطي الصميم كان له مركزان: هما وادي النطرون للهجة البحيرية، والدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد للهجة الصعيدية، وهكذا نرى أن أديرة الرهبان كانت معاقل الأدب القبطي

الصميم بلهجتيه، وفي بعض المخطوطات القبطية تسمى اللغة القبطية لغة أهل الجبال، ولعل المقصود بذلك الصعيد لارتفاعه وأديرة الرهبان لوجودها في الجبال، وقد تولى الأنبا شنودة رئاسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣م الذي أضحى مركزًا للأدب الصعيدي، وفيه أصبحت اللهجة الصعيدية هي اللغة الأدبية للكنيسة القبطية في أزهى عصورها.

وأمام هذه النهضة الأدبية التي تزعمها الأنبا شنودة، أخذت اليونانية تتقهقر وتتراجع بمقدار النمو المطرد الذي انتشرت به المسيحية بين الريفيين، وبعدول الناس إلى استخدام اللغة القبطية كلغة أدبية، وبازدياد الأقباط شعورا بكيانهم وقوميتهم، وعندما فتح العرب مصر كانت اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطي عامة، وكل نهوض بعد ذلك للهجة البحيرية كان على أساس ترجمة الآداب الصعيدية التي انتشرت في القرون الستة الأولى للمسيحية.

### ٤- أقوال الآباء: آثارها وشهرتها

كتب آباء الكنيسة القبطية في نواحي كثيرة أهمها فرعان رئيسيان هما: اللاهوت والنسكيات، وقد حظيت كل تلك المؤلفات بشهرة عالمية منذ كتابتها.

## كتابات الآباء اللاهوتية:

كان أساتذة الإسكندرية وبطاركتها هم عمد اللاهوت في العالم المسيحي كله، لذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة.

كان موقف الزعامة الفكرية الذي وقفه القديس أثناسيوس في مجمع نيقيه سنة ٣٢٥، باعثًا على ذيوع كتاباته في اللاهوت وتوضيحاته للإيمان المسيحي، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحي، حتى أعتبر أثناسيوس أبًا لعلم اللاهوت في المسيحية، ومؤلفاته التي وضعها عن "تجسيد الكلمة" و "الرد على الأريوسيين" و "الروح القدس" انتشرت أيضًا انتشارًا واسعًا، وعليها بنى باقي مشاهير اللاهوتيين أفكارهم حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين في تلك العصور هو: "إذا وجدت عبارة من أقوال أثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها، فاكتبها على قميصك في الحال"، ونعرف أن القديس "إيلاري"– أسقف بواتييه بفرنسا– لما ذاع صيته، لقبوه "أثناسيوس الغرب".

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضًا إلى القديس كيرلس الإسكندري حتى لقب بعامود الدين، وكان كافيًا أن يقول الشخص "أنا على إيمان أثناسيوس وكيرلس" لكي يصبح هذا اعترافًا منه بالإيمان السليم.

وقد نالت كتابات ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية في عهد أثناسيوس شهرة واسعة، حتى أن الأنبا داماسوس أسقف روما لما طلب من القديس جيروم، الذي كانت شهرته العلمية معروفة في الكنيسة

كلها، أن يكتب له مؤلفًا عن الروح القدس" وجد هذا أن أفضل ما يعمله هو أن يترجم إلى اللاتينية ما كتبه ديديموس الضرير في هذا الموضوع.

هذه الشهرة التي نالتها كتابات آباء مصر في القرنين الرابع والخامس سبقتها شهرة واسعة في القرنين الثاني والثالث لأساتذة المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، ولعل أكبر مثال لها هو كتابات أوريجانوس التي تلقفها علماء الشرق والغرب، فراعهم ما فيها من قوة وعمق، ومن أجل ذلك قام بترجمة الكثير منها إلى اللاتينية روفينوس وإيلاري أسقف بواتييه والقديس جيروم، بل أن غالبية معلمي الكنيسة اللاتينية وأعاظم اللاهوتيين فيها حرصوا على أن ينقلوا عن أوريجانوس، كما يظهر ذلك من شرح لامبروسيوس أسقف ميلان معلم أوغسطينوس، وقد شهد أوسابيوس أسقف فرسيل في إيطاليا أنه لم ير فلسفة حقيقية غير مؤلفات هذا العالم القبطي، وكان القديسان باسيليوس الكبير واغريغوريوس الناطق بالإلهيات يعتبرانه معلمًا لهما، وقد جمعا مقتطفات من مؤلفاته في كتاب أسمياه فيلو كاليا.

## أقوال الآباء في النسك

تلك الشهرة التي حظى بها آباء الأقباط في اللاهوت تقابلها شهرة لا تقل عنها في آداب الرهبنة، ولعل أبرز أمثلتها قوانين القديس باخوميوس وما نالته من شهرة، حتى لقد نقلها إلى روما القديس أثناسيوس إبان نفيه عن كرسيه، كما ترجم القديس جيروم حياة باخوميوس وقوانينه إلى اللاتينية سنة ٤٠٤ لفائدة رهبان إيطاليا.

ووصلت إلى بلاد الغال في أوائل القرن الخامس عن طريق القديس يوحنا كاسيان الذي عمل على تطبيقها عمليًا في الدير الذي أسسه في مارسيليا، ووضع القديس أوغسطينوس نظامه الرهباني مسترشدًا بقوانين باخوميوس، وكذلك فعل القديس باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية، والقديس باتريك مؤسس كنيسة إيرلندة في القرن الخامس بعد أن تتلمذ في لوران في دير على النظام الباخومي، وربما يكون من أهم وأبقى آثار الأنظمة الباخومية ما تركته من أثر في الأديرة البندكتية، فإن بندكت في القرن السادس أخذ عن قوانين باخوميوس حتى أنه في بعض المواضع يكاد ينقل بالحرف الواحد، ودير مونت كامينو في إيطاليا لا يكاد يختلف عن أي دير باخومي في قنا، وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء العالم كله، وعلى أساسها قامت الحركات الديرية في العالم المسيحي، وما تزال هذه القوانين باقية حتى الآن باليونانية واللاتينية.

وآباء الرهبنة الذين لم يكتبوا، وإنما اهتموا بممارسة الفضائل عمليًا وبما يلقونه على تلاميذهم من تعاليم، هؤلاء كانوا هم أنفسهم موضوعًا للكتابة، فصنفت عنهم المؤلفات العديدة، وإليهم كان يأتي كبار كتاب المسيحية في العالم ليتسقطوا أخبارهم ويجمعوا كلماتهم القليلة لتكون نورًا للناس، وهكذا في سنة ٣٨٨م جاء إلى مصر بلاديوس أسقف هيلينو بوليس ومكث سنة بين رهبان الصعيد، ثم رجع إليها سنة ٤٠٦ وقضى حوالي سبع سنوات مع رهبان وادي النطرون وكتب كتابه الذي

اصطلح على تسميته فيما بعد ب "بستان الرهبان"، وكذلك جاء القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادي النطرون ما بين سنة ٣٩٠ – سنة ٤٠٠م وضمن كتابيه "المعاهد" و "المقابلات" أخبارًا كثيرة عن الرهبان المصريين ومقتطفات من أقوالهم، كما زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٦ القديس "جيروم" ومعه تلميذته "باولا" ووضع كتابًا عن القديس المصري الأنبا "بولا" التوحد، وأخر عن الرهبان المصريين ضمنه أقوالهم وأخبارهم، ورجع فأسس– على ضوء ما سمعه ورآه– ديرين في بيت لحم بفلسطين أحدهما للرهبان والآخر للراهبات.

ولعل أشهر كتاب كان له أثر بالغ في هذا المضمار هو كتاب "حياة أنطونيوس" الذي وضعه الأنبا أثناسيوس بطريرك الإسكندرية بناء على إلحاح أهل روما، وقد أشعل هذا الكتاب روح الرهبنة والنسك في بلاد الغرب، ويكفي أن قراءته كانت نقطة التحول في حياة القديس أوغسطينوس الذي تأثر به جدًا– كما يذكر في اعترافاته– حتى ترك حياته القديمة، ولم يصبح مسيحيًا فحسب بل أحد مشاهير رجال المسيحية.

ولم تقتصر أقوال الآباء على عصورهم، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها في الأدب المسيحي حتى يومنا هذا، وقد تحمس أهل الغرب لترجمتها إلى لغاتهم ونشرها، وهي تشغل جانبًا هامًا من مجموعتي "منى" اللتين جمع فيهما في أواخر القرن الماضي أقوال الآباء باليونانية وأقوال الآباء باللاتينية، كما تشغل جانبًا هامًا أيضًا في مجموعة أقوال الآباء الشرقيين التي تصدر تباعًا في باريس، وقد صدرت عن أقوال الآباء

بحوث ومؤلفات عديدة، وترجمت كتبهم إلى اللغات الأوروبية الحديثة مع مقدمات وافية لحياة مؤلفيها وأسلوبهم وشهرتهم، أما آباء الصحراء فقد انتشرت أقوالهم في ترجمة كتابات بلاديوس وكاسياس وجيروم، وفي سنة ١٩٢٣ أصدر عنهم "بوسيه" كتابه الخاص بأقوال الآباء.

## اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية كما قلنا، وإنما كتب جزء وافر منها باليونانية، ولهذا كان للأقباط فضل على الأدب اليوناني إذ ضموا إليه ذخيرة جديدة قبطية روحًا وإن كانت تلبس ملابس يونانية، غير أن الأقباط– وبخاصة الرهبان– عادوا فترجموا إلى القبطية كتابات آبائهم التي كتبت باليونانية، وبهذا أصبحت هذه الذخيرة الثقافية والأدبية من التراث القبطي موجودة باليونانية والقبطية معًا.

واهتم العالم اهتمامًا كبيرًا بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلا بالقبطية أو المترجمة إليها، وظهر هذا جليًا بعد حركة النهضة الأوروبية، فأخذ الرحالة والمبعوثون العلميون يجمعون المخطوطات القبطية من الأديرة والكنائس القديمة، وهكذا ذكر الرحالة "ليبزسك" أحد هواة الكتب بباريس بعد زيارته لمصر سنة ١٦٣٣م أنه وجد كتبًا نادرة في كثير من الأديرة منها مجموعة من حوالي ٨٠٠٠ مخطوطة ترجع إلى العصر الأنطوني وجدها في أحد أديرة وادي النطرون، وفي أوائل القرن الثامن عشر أرسل الفاتيكان بعثتين حصلتا على مجموعة طيبة من المخطوطات القبطية من دير أبا مقار، وفي سنة ١٨٣٩ حصل

"هنري تتام" على مجموعته النفسية التي كانت من نصيب مكتبة رايلندز بمنشستر، وتوالت الزيارات على مصر لهذا الغرض، فعثر على مخطوطات بالدير الأبيض استولت على غالبيتها المكتبة الأهلية بباريس ونال المتحف البريطاني بعضًا منها، ثم اكتشفت مجموعة مورجان سنة ١٩١٠م في دير الحامولي بالفيوم ونسبت إلى مشتريها "بيربونت مورجان" أحد أثرياء الأمريكيين.

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بعدد كبير من الشقافة المكتوبة بالقبطية تشتمل على رسائل وإيصالات وصكوك وعقود وغير ذلك حتى لقد بلغ عدد الشقافات القبطية المكتوبة والمحفوظة في فينا بالنمسا حوالي عشرة آلاف شقافة.

وعثر في مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات القبطية تشتمل على تعاليم ماني وهي محفوظة الآن في متحف برلين.

كما عثر في سنة ١٩٤٦ على برديات قبطية تبلغ ألف صفحة تشتمل على رسائل غنوسية وقد استولى عليها المتحف القبطي في القاهرة.

وبهذا كله امتلأت المتاحف والمكتبات العامة في أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات.

وما بقى منها محفوظ في مكتبة الدار البطريركية والمتحف القبطي بالقاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة.

وقامت هيئات علمية بطبع فهارس لهذه المخطوطات القبطية، ونشر بعض المخطوطات وترجمة البعض منها مع دراستها والتعليق عليها، وقام علماء كثيرون في جهات متفرقة من العالم لدراسة هذه المخطوطات نذكر من بينهم كرم، وأميلينو، وإيفلين هوايت، وتشيندورف، وورل، وتل، ولوفور، وبدج، وإيفتس، وكاله، وبوليج، وكراوسه وغيرهم.

وأصبحت للدراسات القبطية في جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يتفرغ لها أساتذة وعلماء.

# الفصل الرابع
# الحياة الفنية

## الفنون القبطية:

تعاني الفنون في حياتها فترات من الخمول أو الضعف، فإذا واتتها ظروف جديدة للانتعاش عادت حاملة معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وطابعها، ولقد حدث في العصر المسيحي في مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالا للفنون، أن نمت الفنون وترعرعت حاملة في طياتها مختلف الصفات الموروثة من عصور سابقة، وفي هذا تقول "زالوشر" أننا نؤمن الآن أن الفن لا يتقدم في خط مستقيم مطرد، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تمحى وتختفي، لتعود إلى الظهور بقوة ووضوح.

وأن ظاهرة العودة إلى الظهور هذه نجدها ملموسة في الفن القبطي.

## الصفات العامة للفن القبطي:

(أولًا) **فن شعبي**: لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كنف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعايتهم، وكان هؤلاء السادة يختارون ويأمرونهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية فيستجيبون،

وهكذا نجد الفن المصري القديم ينعش أبان عهد الملوك الذين أولوه رعايتهم، ويضعف في عصر الضعفاء منهم أو الذين أهملوه.

أما الفن القبطي فهو الأول في الشرق القديم الذي كانت له صفة الشعبية، فإن الأباطرة لم يعودوا يقطنون مصر كما كان الحال أيام الفراعنة، أو أيام البطالمة، بل كانت مصر في عهدهم ولاية رومانية تابعة لروما أو بيزنطة، وصار الأباطرة إذا أرادوا إقامة أعمال فنية تخلدهم يقيمونها في عواصمهم لا في مصر، وبذا فقد الفن القبطي التوجيه السياسي واتجه نحو الشعبية البحتة، فنحن إذا نظرنا إلى الكنيسة الكبيرة في الدير الأبيض قرب سوهاج وهي من بناء القديس شنودة، أو إذا زرنا كنائس مصر القديمة، أو دير القديس سمعان في الضفة الغربية بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو إذا شاهدنا الآثار القبطية في المتحف القبطي أو مختلف متاحف العالم نجد أعمالا فنية قام بها الشعب المصري ووضع فيها الفنان القبطي عصارة روحه ومهارته.

(ثانيًا) **فن ديني ومدني**: خيل للبعض أن الفن القبطي فن ديني يتصل بالكنيسة والعبادة فحسب، وما من شك أن هذا الرأي خاطئ، فهو فن الشعب المصري بأكمله، يظهر في الأمور الدينية كما يظهر في النواحي المدنية بوضوح، وإن كنا نجد أن أغلب العمائر الباقية من ذلك العصر عمائر دينية مثل الكنائس والأديرة، فمرجع ذلك إلى اهتمام الشعب عادة بدور عبادته ومحافظته عليها.

ولا شك أن أهم العمائر التي وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر الإسلامية هي أيضًا عمائر تتصل بالنواحي الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد.

وقد وصلتنا أعمدة وزخارف من بيوت أفراد الشعب إلى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس، ووصلتنا أقمشة كان يلبسها الكهنة في الخدمة الدينية، كما وصلتنا أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس في حياتهم أو يكفنون بها موتاهم، ولدينا الآن أدوات كانت تستخدم في الكنائس وأدوات استخدمت في المنازل أو الحقل، أو الصناعة.

(ثالثًا) **فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها**: نرى في صور الوجوه القبطية ملامح المصري بعينييه الواسعتين المستديرتين وأنفه ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التي تملأ البيوت والحقول مثل القط والكلب والبقرة والجمل والحمل.

ونرى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وأفرعها وثمارها كالعنب والنخيل والرمان والقمح والأكانتس، كما نرى صور السفينة الشراعية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه، ونجد الأساطير القديمة المتداولة بين المصريين سواء بنصها القديم أو بعد أن اتخذت معاني جديدة وصورًا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التي اعتنقها المصريون.

(رابعًا) **ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فنية**: أننا نجد في الفن القبطي أثر الفن المصري القديم والفن الإغريقي والفن الروماني، وإن كنا في الواقع نجد الروح المصرية الخالصة كلما اتجهنا في البلاد جنوبًا.

وكذلك تأثر الفن القبطي بالفن السوري وفنون البلاد المجاورة.

إذ أن المسيحية قد نشأت في بلاد فلسطين وانتشرت في الشام وبلاد البحر المتوسط، وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال، وصار المصريون يهتمون بفنونها وبخاصة فن الشام.

(خامسًا) **فن جمال لا ضخامة**: لم يبلغ الفن القبطي حد الروعة كما بلغ الفن المصري القديم، كما أنه فقد إنتاج الأشياء الضخمة، التي تميز بها الفن المصري القديم، فمن مصر القديمة وصلتنا الأهرام، والمعابد الهائلة كالكرنك والتماثيل الضخمة كتمثال رمسيس، والأعمدة الشامخة والمسلات، ولكن الفن القبطي كان فن جمال يهتم بإبراز المعاني في دقة.

(سادسًا) **فن للزينة**: وصلنا كثير من أفاريز المباني ورؤوس الأعمدة، وكثير مما تزين به الجدران والأسقف والأعمدة، وما تزين به التوابيت والمصنوعات المعروفة بالفسيفساء، كما أظهر لنا الفن القبطي ما تزينت به النساء من حلي وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الأوان الزاهية منها، وامتدت الزينة إلى كتابات الأقباط فزينوا الكتب وزخرفوا صحائفها بزخارف بالغة الذوق الفني السليم.

(سابعًا) **فن يستخدم الأشكال الهندسية والرمزية**: نجد في هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة، ومستخدمة في كل شيء، ولا ننسى أن ننبه إلى أن هذه الخاصية، وخاصية التزيين التي سبقتها، كانتا كثيرًا ما تجنحان نحو أمور رمزية، وقد دفعت هاتان الخاصيتان بالفن القبطي بعيدًا عن الواقع وتصوير طبيعة الإنسان، الأمر الذي قد يجر إلى مظاهر خليعة لا يوافق عليها رجال الدين، وحين دخل العرب والإسلام مصر وجدا تربة خصيبة للتعبيرات الفنية، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التي تناسب العرب والدين الإسلامي، مما نراه واضحا في الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعاني الرمزية التي تبعد عن تصوير الأشخاص، وهكذا نجد صفات مصرية أصيلة راسخة في الفن المصري المسيحي الذي سلمه بدوره إلى الفن المصري الإسلامي.

## صور من الفنون القبطية

### العمارة:

العمارة كأي لون من ألوان الفنون الجميلة انعكاس للبيئة بكل ما تحويه من معان روحية ومادية، والعمارة المصرية القديمة يتمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح مجسم، فهي في جميع مراحلها تعبر لنا تعبيرًا واضحًا عن التيارات المختلفة التي تنازعت المجتمع المصري في مختلف العصور.

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا ذهبنا إلى أن الفوق والتسامي اللذين امتازت بهما العمارة المصرية القديمة كان لها صدى روحي بالغ الأثر في تكييف الفن المعماري في جميع أنحاء العالم، ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة، أن فنها كانت تنبثق من بين خطوطه إشاعات قوية استطاع على ضوئها اليونان والرومان معرفة السبيل إلى التكوين والإنشاء، إذ عرفوا منها كيف يضعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح.

والعمارة القبطية هي هي العمارة الفرعونية، وهي العمارة اليونانية الرومانية في مصر وهي العمارة الإسلامية في مصر، وأما الفوارق التي تفصل بين كل منها: فهي فوارق إقليمية اقتضتها السلطات الزمنية في عهد ما، ثم بعض اعتبارات دينية، ولكنها في الحقيقة تلتقي عند الأصول والأسس التي قامت عليها العمارة الفرعونية، ومهما يكن فإن ما دخل عليها في كل عصر من تحوير أو تكييف بما يلائم ظروف البيئة، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية.

والعمارة القبطية قفزت بروح الفن الفرعوني وبعناصره، وكل ما طرأ عليها من تحوير فإنه لم يمس إلا مظهرها الشكلي فقط، فهي حلقة أخيرة أكملت حلقات الفن المتصلة منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية بمصر.

ولما كان الفن المصري يرتبط بفنون الدين ويلازمها، فقد احتفظ في العهد المسيحي بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلا بالرمزيات والتقاليد في الحياة اليومية

والجنائزية والأعياد وغيرها، أما مركز المسيحية في الغرب وهي روما التي تشرف على الحضارة الأوروبية الغربية، ثم القسطنطينية وهي مركز الحضارة الشرقية، فقد حاولت كل منهما إيجاد طراز جديد لعمارة تتفق مع الدين الجديد إلا أنهما كانتا دائما مقيدتين بالحضارات القديمة التي سبقت العهد المسيحي، ووجدتا نفسيهما مضطرتين لنقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن مصر، التي سبقتهما في المعرفة والعلم، ونقلتا عنها الكثير من الرموز والتقاليد، كما نقلتا كثيرًا من فنون مصر واتخذتا منها منبعًا للوحدات الزخرفية التي قرب فيها المصري بين نماذجه القديمة وبين دينه الجديد، ولذلك ترى أن مراكز المسيحية تنبت من هذه الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل منها أن تفسره بطريقة تتفق مع دينها الجديد.

لو تخيلنا مدينة مصرية قائمة من العصر القبطي، لوجدناها تشبه في تخطيطها المدن المصرية القديمة، ففي الصعيد حيث يندر المطر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة هابو غربي الأقصر، وفي الوجه البحري كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيري كما عرفناها من مدينة أبا مينا (القديس مينا) بالصحراء الغربية قرب الإسكندرية.



شرقية (حنبة) من أحدى كنائس باويط (بالقرب من ديروط) وهي من الطمي المغطى بطبقة من الجص مرسومة بالألوان الفريسك، في الجزء الأعلى صعود المسيح وتحته ترى صورة السيدة العذراء ورسل السيد المسيح الاثني عشر، وأثنين من القديسين المصريين، وطريقة رسمها لا تختلف عن طريقة الرسم في الفن المصري القديم.

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما نراه في الريف المصري الآن، ولها مزلاج من الخشب معروف إلى اليوم، وكانت للبيوت أسقف مرتفعة، ولها واجهات منمقة بحجارة منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة، وكانت بها كنائس كالتي عثر على بقاياها في مدن أبا مينا ومصر القديمة وباويط والبهنسا وإسنا وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات الخارجة، وتتكون من قاعات فسيحة بها صفوف من أعمدة رخامية مستديرة أو مضلعة ذات رءوس منقوشة بأبدع النقوش والأوان الثابتة الزاهية، ويكون هيكلها مفصولا عن القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المنقوش أو المعشق، على أشكال هندسية مختلفة ومحلى بصور القديسين وأشكال مختلفة للصليب، وبعض رقائقه من العاج، كما نجد ذلك في كنيسة أبي سرجه في مصر القديمة، وفي الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أي تجويف في الحائط.

والكنيسة تكون أحيانًا مستطيلة كالشكل المعروف بالطراز البازليكي ويذهب البعض إلى أن تصميمه دخيل على الأقباط، وواقع الأمر أنه مصري صميم نجده أول الأمر في قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك التي شيدها تحتمس الثالث حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م.



قاعدة الأعمدة في المتحف القبطي ومعظمها من القرن السادس الميلادي وفي صدر القاعة منبر من الحجر ذو سبع درجات من حفائر دير الأنبا أرميا بسقارة، وهو أقدم منبر عثر عليه في مصر حتى الآن، وهو من القرن السادس الميلادي.

وتكون الكنائس أحيانًا أخرى ذات قباب بحيطان مطلية من الداخل بطبقة من الجبس مرسوم عليها صور السيد المسيح والقديسين أو مزخرفة بزخارف مثبتة من الجبس أو الحجر في بواطن عقودها وفوق أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور القديسين.

وإذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة أو أحد الأديرة الصحراوية، حفروا لها الآبار والسواقي أو خزنوا مياه الأمطار في مخازن تشبه كثيرًا هذه الآبار التي نجدها في الصحراء الآن والتي يسميها البعض آبارًا رومانية، وواقع الأمر أن الفراعنة

قد عرفوها قبل الرومان بآلاف السنين، وكانت أدوات النجارة وأدوات الحفر تشبه تلك التي نشاهدها الآن عند النجارين الذين يصنعون السواقي الخشبية، ونجد صوامع للغلال، ومصانع للهدايا التذكارية تشبه إلى حد كبير المصانع التي نجدها الآن في خان الخليلي أو في أسيوط.

**التصوير:**

كان التصوير السائد في العصر القبطي يسير على الطريقة التي تواترت منذ أقدم العصور في مصر وهي طريقة التصوير بألوان الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغطاه بطبقة من الجبس، وقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الروماني، واتخذت هذه الطريقة في الرسم شكلا مسيحيا في العصر القبطي، ومنه انتشر بين مسيحي الشرق والغرب، وظل الأمر كذلك حتى عصر النهضة.

أما في مصر فقد حافظ التصوير على الطريقة القديمة حتى القرن الحادي عشر الميلادي، ثم أخذ القبط إلى جانب هذا اللون بطرق أخرى في التصوير، ولم يأخذ التصوير القبطي أشكاله من الطبيعة المنظورة، ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات من الكتاب المقدس، وكان رائده في ذلك المثل العليا التي تظهر فيها صور الأشخاص على درجة من الاستقرار والوقار حتى أنهم رسموا المسيح طفلا بوجه كبير، لا سذاجة فيه، وتحتشوا أن يرسموا ظلالا على الوجوه وراعوا بساطة اللباس وهدوء الألوان.

## النقش على الحجر والخشب:

نشاهد الآن في المتحف القبطي في مصر القديمة وفي متحف العالم المختلفة تيجانًا لأعمدة من الحجر نشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفني، فمنها المجدول على شكل السلاسل تجديلا أتقن النحات صنعه، حتى بدا شديد الشبه بالسلال المصنوعة من القصب التي لا زالت متداولة بيننا، ومنها تيجان منحوتة بشكل زخرفي لأوراق النبات أو الفروع النباتية، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الأكانتس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس، ومنها تيجان مزينة تجاويفها بزخارف محارية الشكل وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون الطبيعي للنبات، وهناك بعض زخارف عثر عليها تعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار، جاء التعبير عنها تعبيرًا حيا يكاد يسمعنا حفيفها.

وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان، أو بالحفر، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيرًا صادقًا، فنجد في المتحف القبطي على سبيل المثال واجهة باب من باويط (وهي بلدة قرب منفلوط تتبع مركز ديروط بأسيوط) من الحجر الجيري على شكل نصف دائرة وقد حلى برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان، وهذا يدل على ارتباط المصري قديمًا وحديثًا وفي مختلف العصور، بخواص البيئة المصرية بل والأقاليم المصرية، ولا يزال الرمان ينسب إلى منفلوط.

كذلك زخرف القبط الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوان، فنرى ضمن زخارف الفن القبطي صورًا لصيادي الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود فضلا عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب والغزلان، وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع إلى مصر الفرعونية، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة، كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة للحداد القبطي تحيط به أدواته بشكلها المعروف في مصر اليوم.

ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطي، فإننا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش، لوحات تمثل وفد الفيران يتقدم إلى القط طبقًا للقصة المشهورة، وقد رفع الفيران علمًا هو الذي يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والأمان، كما نجد منظرًا لملاح محفورًا في الخشب والملاح يداعب تمساحًا بيده.

## المنسوجات:

اشتهرت مصر مُنذ عصورها القديمة بصناعة المنسوجات وكانت تصدر منتجات نسيجها إلى جميع بلدان العالم، وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليوناني ثم الروماني لم يتغير النسيج، وظل محتفظًا بطابعه المصري في صورته القبطية.

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الأوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم إلى روما وبيزنطة، وقد وصبتنا نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل في بقائها إلى جفاف

التربة المصرية وإلى عادة الأقباط في تكفين موتاهم بأجمل لباسهم ودفنهم في مقابر رملية في الصحراء بعيدًا عن وادي نهر النيل خوفًا من مياه الفيضان.



تاج لعمود من الحجر بالمتحف القبطي من حفائر دير الأنبا أرميا بسقارة، وهو يمثل حركة تماوج أغصان الأكانتس بفعل الريح، وفي أعلاه علامة الصليب، من القرن السادس الميلادي.

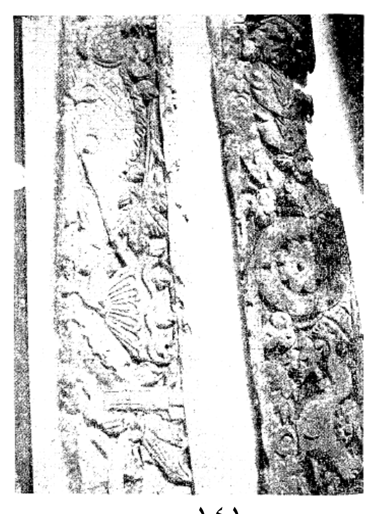
كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن، وأشهر المدن في هذه الصناعة كانت تانيس والإسكندرية وشطا ودمياط ودبيق والفرما في الدلتا، وفي الوجه القبلي البهنسا وأخميم وانطينوي (المعروفة الآن باسم الشيخ عبادة) والفيوم، وكان الصانع

القبطي يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه.

## الفنون الصغرى:

منها الفنون الخاصة بالتزين عند المرأة، وصناعة المعادن، ثم الخط والتجليد.

أما عن التزين عند المرأة فقد كانت المرأة تستعمل الكحل للرموش واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه، وكانت تضع القرط الدائري الواسع في أذنيها أو أقراطًا على شكل عنقود العنب، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهي برأس حية من كل ناحية، بعضها كان مبروما ينتهي برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان بعض حليها الذهبية مرصعًا بالجواهر الكريمة، وكانت تضع عقدًا أشبه باللبة المعروفة الآن في مصر، وكانت تلبس الخلخال الذي يصنع من النحاس أو الفضة، وقد تصنعه المرأة الثرية من الذهب.

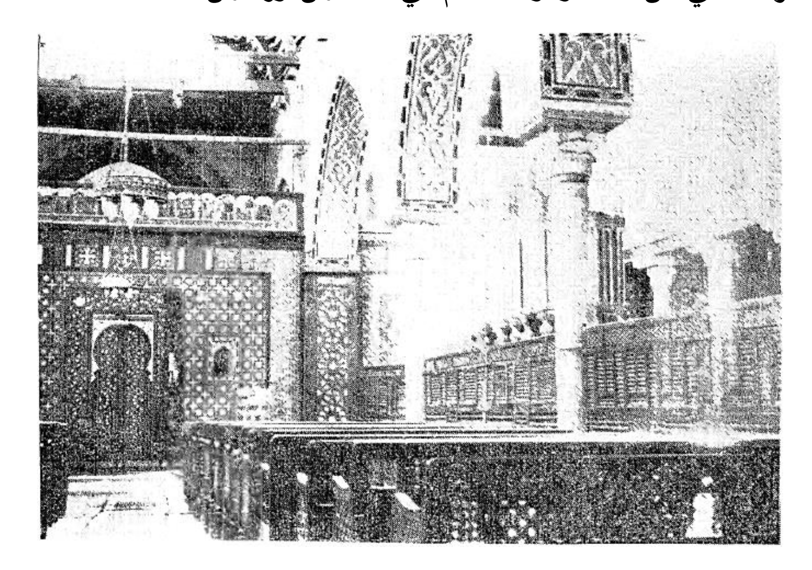


جزءان من أفريز طويل من الخشب المحفور يمثل الأعلى بعض الحيوانات في وسط زخرفة، ويمثل الجزء الأسفل نهر النيل وفيه تمساح في وسط مزخرف وهما بالمتحف القبطي، من القرن الرابع الميلادي.

وقد وصلتنا من العصر القبطي مكاحل وأمشاط من العاج، وعلى سبيل المثال نجد مشطًا رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطي نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب، ويرجع هذا المشط إلى القرن الرابع الميلادي، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية، وعرفوا أيضًا المشط المسمى الآن بالفلاية، وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية.

والرسوم المختلفة التي وصلتنا من هذا العصر تبين لنا صورًا حية من الحياة المصرية التي نحياها والتي كان المصري القديم يحيياها والتي حفظتها لنا آثار العصر المصري المسيحي، ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة في متحف بريشيا لامرأة قبطية جالسة مع ابنتها وابنها وبجانبها صندوق حليها العاجي، وتلتحف الأبنة بشال من القماش المصري يشبه ما نعرفه اليوم من المنسوجات، عليه نقوش من الأساطير القديمة، ومنها صور النساء الثلاث التي وجدت في انتينوي وقد أطلق على اثنتين منهن تايسيس وليكيونا وعلى الثالثة السيدة البيزنطية، نجد تايسيس لابسة ثلاثة قمصان وجلبابين فوق بعضهما كما نرى ذلك شائعًا بين بعض السيدات في الريق والوجه القبلي، وفي وسط الجلباب منطقة لها أكمام طويلة، والجلباب محلى بحافة حمراء في أسفله، وله خطان

رأسيان في الأمام من الحرير الأصفر، كما نجد ليكيونا مرتدية جلبابًا من الكتان الأبيض محلى أيضًا عند أسفله وعند الأكمام والياقة بخط أزرق غامق، ونلاحظ أنها قد لفت شعرها بشال جمع إلى أعلى في شبه تاج، والنسوة الثلاث تعطينا صورة حية لأنواع الملابس وطرازها، والأنواع العديدة لتصفيف الشعر مما يجعلنا نتخيل ما كان عليه النساء عامة في العصر القبطي من أناقة وذوق سليم في ملبسهن وزينتهن.



صورة لكنيسة المعلقة بمصر القديمة ويظهر فيها حجاب الهيكل وهو من الخشب المطعم بالعاج وفي أعلى الحجاب أيقونات القديسين، وهو من القرن الحادي عشر الميلادي.

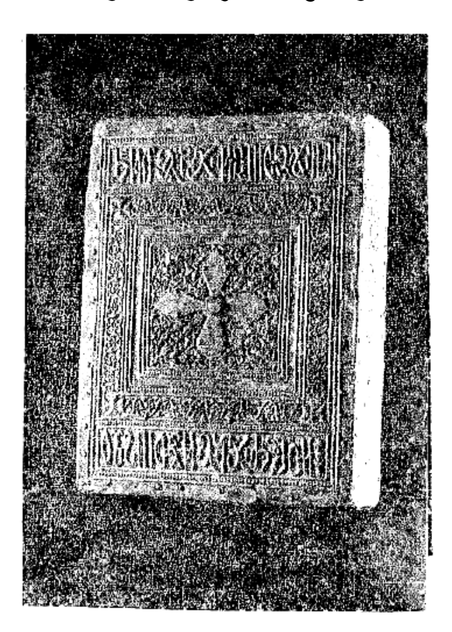
أما عن فن الصناعات المعدنية، فإننا نجد المصنوعات المختلفة التي استخدمتها المرأة لزينتها، ونجد مصابيح في أشكال مختلفة وقواعد للشموع وأواني منزلية متعددة الأشكال.

## الخط والتجليد:

كان المصريون منذ أقدم عصورهم يصنعون الورق من البردي ويصدرونه إلى كافة أنحاء العالم، وها نحن نجد الأقباط يكتبون على البردي وعلى الرق، ثم يتقدم بهم الفن فيزينون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة، هذه الصحائف التي بلغت دقة الحروف المطبوعة بإتقان، والتي يبهر جمال زخرفتها كل من يراها.

## خاتمة:

كانت هذه الفنون في أيدي صناع مدنيين، وكان الرهبان في الأديرة أيضًا يتقنونها، فإنهم رسموا الرسوم، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة، وأتقنوا النجارة والبناء ومختلف الصناعات.



وهو القرن الرابع عشر الميلادي

ولما دخل الإسلام مصر، اهتم العالم الإسلامي بصناعات الأقباط فنجد الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية إلى الكعبة لما لمسوه من إتقان المصريين لصناعة النسيج، ويختارون من إنتاج هؤلاء الصناع ما يخلعونه على أتباعهم من الأردية ويسمونها "القباطي" نسبة إلى صناعها الأقباط، واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط في إنشاء المساجد والعمائر، وعن الفن القبطي أخذ الفن الإسلامي المحراب والمئذنة والقباب.

وكان العصر الفاطمي بمصر فاتحة لإظهار الفن الإسلامي في شخصيته المصرية الإسلامية المتميزة، وعندئذ أخذ الفن القبطي ينحصر بين الأقباط أنفسهم ويحيا مرتبطًا بالنواحي الدينية والطقسية حتى عصرنا هذا.

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة في الأديرة القبطية وما زالت هذه البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل المجلدين الضخمين اللذين تركهما الأنبا مكاريوس البطريرك المتوفي سنة ١٩٤٥، وقد رسمهما وهو راهب في أديرة وادي النطرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية، ويحوي كل من هذين المجلدين حوالي ٧٠٠ رسم، كل منها يخالف الآخر، نقل بعضها عن المخطوطات القديمة وقد اختار أن يرسمهما بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان، وكتب على بعضها الأصل الذي نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التي كان الرهبان يتبعونها.

## الرواسب الفنية

يعيش المصريون في دورات زراعية يشترك فيها النيل والفلاح والحيوان والطير، كل يقوم بدوره على وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع في هذا الوادي الخصيب، ومن هذا النظام الطبيعي وما يتجلى فيه من تعاون من بذور وسقى وحصاد، تكون لدى الفلاح أساس ثابت متين.

ثم مرت على مصر ديانات تباينت في مظهرها، وتشابكت في أصولها، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت في قيمتها وتوحدت أغراضها، فترسبت منها فوق هذا الأساس المتين رواسب إنسانية سليمة عملت على تكوين مبنى المصري الروحي والفني.

وهذه الرواسب التي يحملها المصري رواسب قديمة ممعنة في القدم، تميزه عن غيره من الناس في هذا العالم، وهذا التراث غير منظور.

أما تراثه القديم المنظور، فقد أماط العلماء اللثام عن بعضه، ولا يزال الكثير منه خافيًا أو مختفيًا سيظهره العلم يومًا، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص.

أما التراث غير المنظور فلا يملك غير المصري الكشف عنه، فهو من صميم حياته الداخلية، بما فيها من رواسب نفسية وقدرة تلقائية لا تغزوها المادة، ولا تتحكم فيها الأوضاع العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب، فهي سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو متقطعة أو

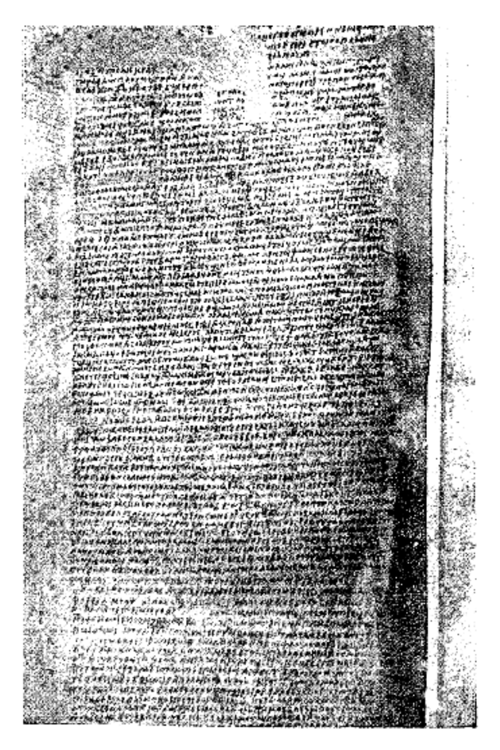
مصطنعة الاتصال، وهي وحدة متماسكة الحلقات، والمصري وحده هو القادر على التفاعل مع هذه الرواسب، يتناولها عن طريق الرضى والرغبة وعدم التكلف ثم عن طريق الحب والمثابرة، وهي السبيل للوصول إلى أعماق نفسه ليتخرج منها ثروة كامنة أصيلة في نفسه.

يقول المرحوم حبيب جورجي "بهذا الإيمان بدأت تجاربي للكشف عن كنة الرواسب في الأطفال الذين لم تمتد إليهم السدود التي تعترض الفيض ولم تتحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه، سهلت لهم سبل الحياة الراضية والخالية من الصنع والكلفة، ففاضت نفوسهم بتراث مصري صميم، أذهل العالم وحير العلماء لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين".

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الإنتاج الفني لهؤلاء الأطفال:

"من الواضح أن النحت الذي كان الإعجاب به شديدًا في مصر القديمة، هو وليد التربة أو هو نتيجة لحساسية ترهفت بفضل تلاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية، حيث الجدب المتناهي يتباين مع الخصب الوفير، وحيث يتآلف هذا المجموع وينتهي إلى إدراك الأبدية، ولقد استوحى النحت المصري كل أشكاله من هذه الروح، وهذا ما يفضي عليه في مجموعه، وعلى الأخص في تناسقه الداخلي تلك الصفة التي تكاد تعلو على الإنسانية حتى لكأنها تشارك في اللانهائية والتي لا يمكن أن نجد لها مثيلا في أي مكان آخر في العالم، وكان الأستاذ حبيب جورجي يرغب في أن يتبين صلة الفن في مصر بالتقاليد الفرعونية

التي صنعتها المدنية اليونانية منذ أجيال، فغامر بتجربة ليجعل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة الشعبية التي هي من أمعن الطبقات المصرية، تتميز بحساسية فنية، ولكنها أبعدت قصدًا عن علم الرسم وعن الطرق المدرسية، ثم تركها لتخلق في حرية كاملة أعمالا فنية ابتدعها كل بنفسه وعلى فطرته.



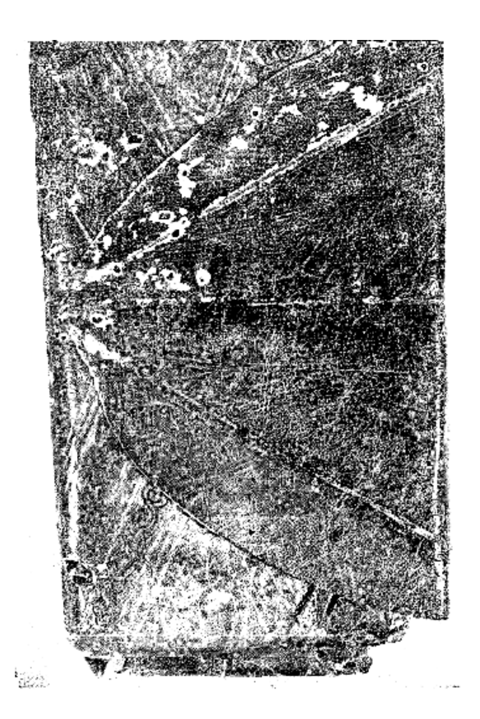
ورقة من أوراق البردي التي عثر عليها ضمن مجموعة كبيرة تشمل ٤٧ كتابًا في الغنوسية، مكتوبة باللغة القبطية محفوظة بالمتحف القبطي وهي من القرن الرابع الميلادي.

وتطلب هذا العمل صبرًا ومثابرة من أستاذ حبيب جورجي، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين انتخبهم في عناية فائقة نحو إدراك الأبعاد وهم يشكلون الطين، وأن يرشدهم في اختيار مصادر وحيهم وفي توضيح طرق التعبير عندهم، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون، كذلك كان عليه أن يدربهم على نحت الحجر، وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول.

وقد ظهرت النتائج، وفي وسع كل إنسان أن يحكم عليها، حقًا أن القالب الذي صيغت فيه هو قالب مصر الحاضرة، وهذا هو الطبيعي في الأمر، لأن الغرض الذي يهدف إليه ليس أن يحيي الرسم، بل غرضه أن يوقظ الروح ويبعث التقاليد في التعبير.

والشيء الذي أدهشني شخصيًا في هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تتحد وروح مصر القديمة في تناسقها وفي توزيع أجزائها، ولو أن مثالا من العصور الفرعونية أراد أن يمثل الحياة في مصر الحديثة لما صورها على غير هذه الصورة، وسيظهر المستقبل إلى أي مدى وإلى أية قوة في التعبير تستطيع هذه المدرسة أن تبلغ، كما سيظهر المستقبل عددًا من الفنانين الذين شاركوا في التجربة ومهدت لهم السبيل.

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد توثقت، وأن هذه التقاليد صميمة لأنها هي بعينها تقاليد مصر الفرعونية.



غلاف من الجلد لمخطوطة من المخطوطات الغنوسية المحفوظة بالمتحف القبطي، وعليه علامة عنخ رمز الحياة عند المصريين القدماء، وهي رمز العلم والمعرفة، وكانت المكتبة تسمى عندهم برغنخ أي بيت الحياة، ويعد الغلاف أقدم ما عثر عليه حتى الآن من أغلفة الكتاب في العالم، وهو من القرن الرابع الميلادي.

## الموسيقى والألحان

تدل الصور المنقوشة على جدران المقابر والآلات الموسيقية التي عثر عليها في مصر، على أن الشعب المصري منذ عرفناه في التاريخ، يميل بطبعه إلى الغناء والموسيقى، ويستخدمها في المناسبات المختلفة في حياته الاجتماعية، وفي الاحتفالات العديدة في حياته الدينية.

يقول فيثاغورس العالم اليوناني الذي جاء إلى مصر في عهد الاحتلال الفارسي، أي في القرن السادس قبل الميلاد، أنه جمع ما وجده في مصر من عناصر موسيقية مكنته من وضع نظريته في الموسيقى.

زار هيرودوت مصر حوالي سنة ٤٦٠ قبل الميلاد وذكر في تاريخه عن مصر فقرة ٧٩ إن المصريين ينشدون لحنًا حزينًا، ذكر أنه أقدم الألحان عندهم، وأنه من الأمور التي أعجب منها في مصر.

وذكر ديمتريوس الفاليري حوالي سنة ٢٨٠ قبل الميلاد أن كهنة مصر كانوا يكرمون آلهتهم في الاحتفالات بالترتيل، وكانوا يرتلون بالأحرف المتحركة السبعة: واحد بعد الآخر على التتابع، وكان هذا النوع من الغناء يغني عن استعمال المزمار أو القيثارة، هذا ومازال الكثير من الألحان القبطية يرتل بهذه الأحرف إلى اليوم، وكان القدماء يعتبرون طريقة الترتيل بهذه الأحرف يؤدي إلى التعبير عن شعور ديني عميق.

ولما نشرت المسيحية في البلاد المتباينة وتكونت كنائسها، نشأ معها في كل قطر فن موسيقي كنسي تمشي مع النزعة الفنية الموسيقية

لكل شعب، وشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمدًا ذلك من تقليده.

وقد ذكر الفيلسوف الإسكندري فيلون الذي عاش في القرن الأول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحانًا لعبادتها الجديدة من الأنغام المصرية القديمة، وهذا يوضح لنا كيف انبثقت الموسيقى الكنيسة المصرية من الفن الموسيقي المصري، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان الشائعة إلى الآن في الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد، فاللحن السنجاري نسبة إلى بلدة سنجار، التي تقع شمالي محافظة الغربية، وعرفت منذ أيام رمسيس الثاني وكانت تحوطها الأديرة في العصر القبطي، وكذلك الأتربي نسبة إلى أتريب القديمة(بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم).

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم– إن لم تكن أغناها– في فنها الموسيقي، والموسيقى جزء لا يتجزأ من ترتيبات عبادتها المتنوعة وطقوسها الطويلة، وهذه الطقوس كما نعرفها الآن وقد وصلتنا كاملة منذ القرن الخامس للميلاد، لا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو فارسية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية.

والموسيقى الكنسية– كما وصلتنا– صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية في أدائها، وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاها، ودونت موسيقى الكنسية القبطية أخيرًا بالنوتة الموسيقية للصوت وتقع في عدة

مجلدات لم تنشر بعد، وكذلك سجلت جميع ألحانها على أشرطة صوتية، هي موضع درس يمكن أن نقابل بين بعضها، وبعض الأغاني الشعبية القديمة السائدة الآن في مصر وأوجه الشبه بينهما ملحوظة.

والألحان تتفاوت طولا وقصرًا، ويبلغ بعضها خمس عشرة دقيقة، ومنها ما ينغم على كلمة واحدة أو بضع كلمات، وعلى الرغم من ذلك فالموسيقى القبطية معقدة وتتكون من صوت واحد أي لا تتعدد نغماتها في وقت واحد، ولها من بساطتها قوة تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأذواق، وهي ألحان معبرة، وفيها اللحن الحزين ولحن الفرح، قال أحد علماء الموسيقى عند سماع الألحان الحزينة "أن أنغامها عريقة في القدم، فيما حض على الزهد، واسترخاء للنفس الطاغية، أما ألحان الفرح ففيها نشوة تشعر الإنسان بلذة روحية وتسمو به إلى عالم أسمى".

ومن أقدم الألحان لحن لاكلمينضدس الإسكندري (١٦٠ – ٢٢٠م) مدون في آخر كتابه "بيدا جوجوس" يردده المعتمدون لشكر السيد المسيح لأنه خلصهم من الخطية، وهذا اللحن غير مستعمل الآن، وهناك نص لحن قديم عن عيد الصليب، وضع لمناسبة العثور على الصليب سنة ٣٢٦ ميلادية.

أما أقدم لحن مكتوب بعلامات موسيقية، فقد عثر عليه مدونًا في بقايا بعض أوراق بردية كشف عنها في مدينة البهنسا، وهذه الأوراق من أواخر القرن الثالث الميلادي.

والموسيقى الكنسية موجودة في القداسات وفي ألحان المناسبات، والقداس القبطي هو القداس الوحيد في جميع كنائس العالم، الملحن من أوله إلى آخره.

وللكنيسة المصرية أربعة قداسات خاصة بها:

١-القداس الكرلسي وينسب إلى مرقس الرسول، وكانت أوضاع هذا القداس قد استقرت قبل كيرلس الكبير، وأوجه الشبه واضحة بينه وبين قداس مار يعقوب وقداس عهد الرب، هذا وقد ضاعت أغلب موسيقى القداس الكرلسي ولم يبق منه إلا بعض ألحان يستعمل للترحيم في الصلاة على الموتى.

٢-القداس الباسيلي، وتوجد منه ثلاثة قداسات منسوبة إلى باسيليوس الكبير؛ قداسباسيليوس لكنيسة القسطنطينية، وقداس باسيليوس عن السريان وقداس باسيليوس القبطي، والقداسات الثلاثة تختلف عن بعضها في النص والطقس واللحن.

وقداس باسيليوس القبطي استعملته الكنيسة قبل الانفصال سنة ٤٥١م أي قبل كيرلس الكبير، وموسيقى القداس الباسيلي مصرية كلها، إلا مقدمة القداس والاعتراف فموسيقاهما بيزنطية.

٣- القداس الغريغوري وهو خاص بالكنيسة المصرية منذ قبل الانفصال، ونغماته مصرية كلها إلا أوله والاعتراف فموسيقاهما بيزنطية.

٤- قداس الأنبا سرابيون أسقف توميس الذي كان تلميذًا لأنطونيوس الكبير وصديقًا للأنبا أثناسيوس الرسولي، ويخيل إلينا أن هذا القداس لم يكن واسع الانتشار ولم يستمر استعماله مدة طويلة، ونحن لا نعرف عن موسيقاه شيئًا.

فهذا الفن القديم ورثته الكنيسة القبطية وحافظت عليه، ولعل في دراسته العلمية ما يعود بنا إلى أصوله المصرية، فإن الموسيقى الكنسية القبطية أقدم مدرسة موسيقية معروفة في العالم.

# الفصل الخامس
# الحياة الاجتماعية

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية.

(ب) الأسرة

(ج) العادات

(د) التقويم

(هـ) الرهبنة: قيامها في مصر، أطوارها، آثارها التربوية والاجتماعية وانتشارها في أنحاء العالم المسيحي.

## (أ) مركز المرأة في الحياة المصرية

كانت المرأة في مصر – منذ أقدم العصور– مصدر الوحي ومبعث الجهاد الروحي، حتى لقد جعلوا الآلهة معات رمز العدالة والبر والحق، وقد سجل التاريخ أسماء الآلهات والملكات والكاهنات، ولكن العظمة الروحية التي امتازت بها المرأة في مصر لا ترتكز على هؤلاء وحدهن– إذ هن يؤلفن أقلية – بل ترتكز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن أولادها أمام معلميهم، كما كانت مسئولة عن والديها في شيخوختهما، فهي لم تكن مصدر الوحي فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضًا.

واعتنق المصريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحي وظلت حاملة الشعلة، فقد روضت نفسهاعلى السمو بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجًا للوثنيين وقدوة مثلى اجتذبت هؤلاء الوثنيين إلى دين المسيح بطريقة معيشتها، لأنها كرست حياتها للخدمة في خشوع، واضعة نصب عينيها كلمة بوليس الرسول "أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم"، ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فانتزعت احتراك الجميع انتزاعًا، وكانت التعاليم التي تسلمها التلاميذ من السيد المسيح عن كرامة الشخصية الإنسانية تتردد على مسامع الشعب كل يوم إذ كان إكليمنضس الإسكندري يعلن عظمة الزواج المسيحي في محاضراته بالمدرسة الإسكندرية، وكان يبين لسامعيه كرامة هذا الزواج الذي جعلت منه الكنيسة سرًا مقدسًا ورباطًا روحيًا يعقده الكاهن بمقتضى ما ناله سلطان تسلمه من الرسل أنفسهم، ومن أن السيد المسيح بارك العرس في قانا الجليل، وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد، والعجيب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون إلى محاضرات إكليمنضس وغيره من معلمي الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته، وعن قداسيه الزواج– كانوا يصغون بانتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد بنفوسهم إلى ذروة الحكمة التي بلغها، فإذا ما قارن المستمعون إلى محاضرات إكليمنضس بين تعاليمه وبين الحياة التي يحيياها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للإيمان بقدسية الزواج، لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكرامة الإنسانية التي تترفع عن النزول إلى حمأة الرذيلة، وحين أبصر الوثنيون هذا

التقديس للزواج وهذا التمسك التام بالعفاف، تحولوا تدريجيًا نحو هذا الدين الذي ارتفع بالصلة الزوجية إلى مرتبة الروحيات.

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء اللواتي بلغن مكانة روحية سامية، إلا أن هناك آلافا من الجنديات المجهولات اللواتي عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها، ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة يرويها الأنبا مكاري الكبير بنفسه، فإنه- على الرغم من حياة النسك والرهبنة التي كان يحيياها- كان يؤمن بأن كل من يفعل إرادة الله ينال رضاه، فقد شاء ذات يوم أن يعرف درجة القداسة التي وصل إليها، فرأى في رؤي الليل ملاكًا ينبئه بأنه بلغ مرتبة سيدتين في بلادة معينة، فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصدًا البلدة التي أشار إليها الملاك، ولما وصل إلى بيت السيدتين استقبلتاه بالتكريم والإجلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليعرف السبب في ما نالتا من تقدير، فأعلمتاه بأنهما يسكنان معًا لأنهما متزوجتان من أخوين، وأنهما اتفقتا منذ اليوم الأول على أن لا تتفوه إحداهما بكلمة تجرح الأخرى، وإذا أحست واحدة منهما بأنها أساءه بكلمة إلى الأخرى اعتذرت لها في الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت إليها وصفت الحساب مع ضميرها، وحين سمع الأنبا مكاري هذا الكلام هتف قائلًا "حقًا أنه لا فرق بين الراهبة والمتزوجة، وبين الناسك والرجل الذي يعيش في العالم، فقد وهب الله تعالى نسمة الحياة للجميع ولم يطالبهم إلا بصدق نواياهم".

ولقد أدركت المرأة المصرية قدسية الأمومة كما أدركت قدسية الزواج تمامًا، فلم يعد للأم المسيحية شاغل إلا العناية بأولادها والسهر على تربيتهم تتفق والكمال المسيحي، وقد دفعها هذا الإدراك إلى التفاني والمحبة، ولم تكن أمومتها منصبة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل اتسعت لتشمل الأولاد المحتاجين إلى العناية في شتى صورها، فلقد استشهد أبو أوري جانوس في الاضطهادات التي أثارها سبتيموس ساويرس في أواخر القرن الثاني للمسيحية، وكان أوري جانوس لا يزال يافعًا مع كونه أكبر أخوته السبعة، ولم يكتف الإمبراطور الروماني الظلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلهم بل صادر أموالهم أيضًا، فاعتنت بهم سيدة غنية من سيدات الإسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها، وسهرت على تربية هؤلاء الأطفال اليتامى، وبذلك هيأت الفرصة لأوري جانوسليكون من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية ومن أعلام الفكر المصري الناضج.

ولقد كان من أثر تمسك المرأة بكرامتها وحفظها لطهرها وإدراكها الصحيح لمسئولياتها أن وثق بها آباء الكنيسة ومعلموها، فنجد أن أوري جانوس ناظر مدرسة الإسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة، استخدم سبع شابات يجدن الخط كي يكتبن له هذا الكتاب في صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل، ولما بدأت الاضطهادات المروعة التي شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة قوة راسخة شدت من عزيمة الرجال، إذ كانت تقف إلى جانبهم وهم يسامون أنواع العذاب

تشجعهم على احتمال ما يلاقون من هول، وبعد ذلك تتلقى هي ما تلقاه الرجال من صنوف التنكيل في سكينة وثبات.

كان يحدث أحيانًا أن يجبن الرجل فتكون المرأة سببًا في أن يستعيد شجاعته، وأبرز مثل لذلك السيدة دميانة التي كانت الابنة الوحيدة لمرقص والي البرلس، وكانت قد طلبت إليه أن يبني لها قصرًا تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه إلى ربها وتقضي عمرها في الزهد والتقشف، وفي الصوم والصلاة، وفي التأمل والعبادة، فأجابها أبوها إلى رغبتها وبنى لها قصرًا في المنطقة المعروفة الآن بالبراري بالقرب من بلقاس، حيث عاشت فيه في أمن وسلام مع أربعين عذراء نذرن العفة والطاعة مثلها، وعشن جميعًا في هدوء وطمأنينة، إلا أن ديو قلديانوس الإمبراطور الروماني أثارها حربًا شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل، وحين أعلن هذا الإمبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه إلى الهيكل ويرفعوا القرابين للآلهة، فجبن مرقص أبو دميانة وخشى على مركزه وجاهه، وذهب مع الإمبراطور كما طلب.

فلما سمعت دميانة بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع، فلم يسع مرقص إزاء كلمات ابنته إلا أن يعود إلى الإمبراطور ويعلن له ندمه عما فرط منه من تمجيد للآلهة ويقرر له أنه مسيحي، فأمر الإمبراطور بقطع رأسه بالسيف، ثم أرسل جنده إلى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون عذراء، فنكلوا بهن

تنكيلا، وتحملت دميانة وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب، وكان أهل القرية قد خرجوا جميعًا ليشاهدوا ما سيفعله الجند بالعذارى، فلما رأوا ثباتهن وشجاعتهن أعلنوا مسحيتهم، فأمر الضابط الروماني بقتلهم جميعًا كما أمر بقتل السيدة دميانة والعذارى الأربعين، وهكذا كانت بسالة السيدة دميانة سببًا في إذكاء نار الحمية والإيمان الثابت في قلوب هؤلاء جميعًا.

ثم انتهت الاضطهادات وحلت الأمن والطمأنينة، فعادت المرأة إلى مزاولة أعمالها العادية، فالزوجة انصرفت إلى بيتها، والأم عادت إلى تربية أولادها، وإلى جانب الزوجة والأم كانت توجد من وهبت حياتها لخدمة الله والناس، واختارت أن تكون راهبة أو شماسة (أو كليهما فب آن واحد)، ولم تكن حياة العبادة منصبة على العبادة والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوي والعقلي والخدمة الاجتماعية أيضًا.

أما درجة الشماسة فكانت تستلزم ممن ينالها أن يتفقد المرضى والمسجونين والغرباء والمعوزين، كما كان عليه أن يزور العائلات ويقدم تقريرًا عن أعماله للكاهن أولا بأول، فكانت الشماسة مسئولة عن الحي المنوط بها خدمته، ترعى سكانه وتعمل جهدها على تخفيف آلامهم وعلى إدخال الطمأنينة إلى نفوسهم، وتحرص على مصاحبتهم إلى الكنيسة كي ينالوا حظهم من الرعاية الروحية، بل لقد كان الشماس (أو الشماسة) يوصف بأنه (عينا الأسقف وأذناه) لأهمية عمله.

وأعظم مثل بين الشامسات، تلك الشماسة التي لم يذكر التاريخ أسمها والتي أختبأ عندها أثناسيوس الرسولي (البابا الإسكندري العشرون)، ذلك أن الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله، فهجموا ذات ليلة على الكنيسة التي كان يصلي فيها، ووقف الشعب تلك الليلة في وجه الأريوسيين، ثم حمله بعض الرهبان خارج الكنيسة، فلما وجد نفسه حرًا طليقًا أخذ يتمشى في شوارع المدينة وهو يفكر، وكان ظلام الليل ستارًا يغطيه عن أعين مطارديه، وفيما هو يفكر ويصلي ألهمه روح الله أن يلجأ إلى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من عمرها، ولما قرع الباب فتحته بنفسها ففرحت فرحًا عظيمًا حين رأته، ومكث القديس العظيم في بيتها حوالي ست سنوات خدمته خلالها بأمانة لا تعرف الكلل، فكانت تأتي له بالمخطوطات من الكنيسة، وتحمل إلى الشعب رسائله الفصيحة وخطاباته التي كان يكتبها في مختلف المناسبات مما أثار دهشة أصحابه وأعدائه معًا.

فأصحابه كانوا يتلقون تلك الرسائل بغبطة ولهفة وهم يتساءلون في شيء من الخوف: ترى أين الباب العظيم؟ أما خصومه فكانوا يتميزون غيظًا لعجزهم عن معرفة مقره والفتك به، وضاعت جهود الأصدقاء والأعداء في البحث عنه، فلما مات الإمبراطور قسطنس الثاني الأريوسي– وكان المؤمنون مجتمعين ساعتئذ في الكنيسة للصلاة– إذا بأثناسيوس الرسولي واقف بينهم فجأة، فلاقوه بفرح لا يوصف ثم سألوه أين كان مختبئًا فأجابهم "لم أختبئ عند أحدكم لئلا يسألكم الحكام عن

مكاني فتكذبون حرصًا على حياتي، بل لقد اختبأت عند تلك التي هي فوق الشبهات مع كونها شابة جميلة، فكسبت بذلك حياتي وحياتكم".

هذا المثل الرائع يعطينا صورة عن خدمات الشامسات ومدى جهودهن الدينية والاجتماعية، وإلى جانبهن وقفت الراهبات اللواتي كرسن حياتهن للخدمة والعبادة في تفان عجيب، ومن الأمثلة البديعة لخدمة الراهبات الروحية والاجتماعية معاص ذلك المثل الذي قدمته العذراء "يبامون" حين فضت نزاعًا بين أهل قريتين بسبب مياه النيل– إذ كان أهالي كل قرية يريدون ري أراضيهم قبل الآخرين.

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت المرأة تؤديها، هذه الخدمة هي التطبيب، فقد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض الأعشاب من فوائد صحية ويركبن منها العقاقير ويصفنها للمرضى، وكانت هذه الخدمة توهب مجانًا في معظم الأحيان، ولا تزال في بعض بلاد الصعيد سيدات يؤدينها، وهؤلاء السيدات لم يذهبن إلى مدارس ولم يتلقين العلم على أساتذة، ومن المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم– أي أن المرأة التي لديها هذه المعرفة كانت تختار شابة تتوسم فيها الرغبة والمقدرة على تأدية رسالة التطبيب فتسلمها معرفتها بالممارسة، ولما كانت هاته النسوة يعشن في بيئة ساذجة، يندر فيها من يعرف القراءة والكتابة، كما يندر أن يوجد فيها من يهمه أن يكتب سيرة المرأة العاملة، فإنه لا توجد أدلة مخطوطة، وإنما الأدلة قائمة على قيد الحياة نفسها وعلى التقليد الذي سارت عليه مصر منذ أقدم العصور.

## (ب)الأسرة

اهتمت المسيحية بحياة الأسرة كأساس لبناء مجتمع سليم، فبمجرد دخول المسيحية إلى مصر اهتمت بأن تدخل تعاليمها وقوانينها إلى الأسرة لتدعيمها وحمايتها، فتساعد على تهيئة جو من الاستقرار والأمن.

فرابطة الزواج المسيحي تعتبر ركنًا هامًا من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة التي هي: العماد– التثبت– التناول– الاعتراف– الزيجة– مسحة المرضى– الكهنوت (والسر الكنسي هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة).

لذلك فرابطة الزواج تحتاج إلى نعمة إلهية لربط الزوجين برباط روحي متين، يستمر مدى الحياة ولا يفصمه إلا الموت أو الخيانة الزوجية (الزنا)، لذلك فمن المحتم أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن شرعي، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يفصم هذه الرابطة إلا الكاهن في حدود العلة الآنفة الذكر فقط.

وبما أن الزواج في المسيحية رابطة روحية تجعل من الأثنين واحدًا، لذلك فلا يمكن أن يدخل ضمن هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة.

وعلى الكاهن بصفته أبًا روحيًا أن يستوثق من توافر شروط الزواج والخلو من موانعه، وأن يتأكد من الرضا الشخصي لكل من الخطيبين، فيسأل كلا منهما رأيه على انفراد بعيدًا عن مؤثرات أو ضغط العائلة،

حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة.

ويسمي الأقباط حفل إتمام طقس الزواج بالإكليل- لأن الكاهن يتوج رأس العروسين أثناء الصلاة بإكليلين، دلالة على النعمة المقدسة التي توجت حياتهما برابطة الزيجة، وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة، كان من أولها تقديم الشكر لله بمحاولة إشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة في مشاعر الفرح، وذلك بتوزيع الكساء وما طاب من مأكل وحلوى عليهم.

أما العائلات الثرية فتنحر الذبائح ويستمر احتفالاتها عدة أيام، الليلة السابقة على العرس وتسمى "ليلة الحناء" وتقام وليمتها في بيت العروس لتوديعها، وفيها تصبغ العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التي تتركها عجينة أوراق الحناء على الجلد، ثم ليلة العرس في بيت العريس والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء، وما يسمى بالنقوط (أي الهدية النقدية) ونشأت فكرتها أصلا كمشاركة عملية في مصاريف العرس، وأحيانًا تستمر هذه الحفلات إلى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة السبوع.

ولما كانت الأطعمة التي تقدم في ولائم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة، فقد منعت الكنيسة إقامة "الإكليل" في أيام الأصوام، حيث يمتنع تناول الأطعمة الحيوانية الدسمة، وحيث يمتنع الأزواج عن المعاشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة.

وحينما يولد للعائلة طفل، يكون أول احتفال عائلي به في اليوم السابع، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة، وتسمى "صلاة الطشت" نظرًا لاستخدام الطشت في غسل الطفل في ذلك اليوم، وخلال هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين في اختيار اسم قبطي للوليد- يختارونه غالبًا من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بمثلهم العليا ولهم في ذلك طرق مختلفة: فالبعض يختار اسم القديس الذي ولد الطفل في يوم عيده أو ذكرى استشهاده، والبعض يختار سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات، والشمعة التي تستمر مضيئة إلى آخر الحفل يطلقون الاسم الذي تحمله على الوليد، وأحيانًا يكون الاسم قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية الوليد باسم القديس الذي استشفع به في وقت ضيقته.

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء يدفعهم لإطلاق أسمائهم على أبنائهم، سواء كان اسم القديس من أصل مصري أو يوناني أو سرياني، الأمر الذي اختلط على البعض فجعلهم يتشككون في مصرية حاملي هذه الأسماء، فكانوا ينسبون مشاهير العلماء والقديسين المصريين إلى اليونان لمجرد أن الاسم أصله يوناني.

وكان في كل بيت قبطي "مقصورة" (ومعناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة) بها أيقونة (أي صورة) لقديس أو أكثر، وتوضع في ركن خاص بالبيت كمكان مخصص للصلاة والعبادة، وأحيانًا يضيئون أمام

الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض الشموع تكريمًا للقديس الذي كانت حياة الفضيلة والتضحية التي عاشها نورًا وهديا للمجتمع، وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة القبطية أن تجتمع لتصلي الصلاة العائلية في الصباح وعند الغروب، وتحتفل العائلة بالعيد السنوي لهذا القديس بتوزيع الصدقات وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء معًا.

وحينما يكتمل للولد أربعون يومًا، تحمله أمه إلى الكنيسة لينال سر العماد، فتعين له الكنيسة عرابًا أي (أشبينًا) ومهمته أن ينوب عن الكنيسة في رعاية الطفل روحيًا إلى أن يصل إلى سن الدراسة، فيلتحق بمدرسة الكنيسة.

وهذا الارتباط القوي بين البيت القبطي والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى تترك في حياة أولاد العائلة انطباعات دينية عميقة، فكلما بنت العائلة بيتًا جديدًا أو نقلت مسكنها إلى دار أخرى، دعت الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم الكاهن في آخرها برش الماء المقدس في أرجاء البيت استجلابا للخير وطردًا للشر، ومن الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيت رعيته من حين لآخر واعظًا ومرشدًا، كما عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه فيصلي سر مسحة المرضى (القنديل) ويدهن المريض بالزيت المقدس.

ومن العادات العائلية القديمة في الصعيد، الأمسيات التي يسمونها "الميمر"، والميمر معناه السيرة، فإذا كان على عائلة نذر ما لأحد القديسين، أو مناسبة فرح وشكر لشفاء مريض أو توفيق شخص في

تجارته أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط، احتفلت العائلة بدعوة الجيران والأقارب والفقراء ومرتلي الألحان الكنيسة إلى سهرة يجلسون فيها حلقة يتوسطها من يقرأ سيرة (ميمر) أحد القديسين، وكلما وصلوا إلى فصل جديد في السيرة أو نقطة بطولة، يتوقفون عن القراءة ويأخذون في ترتيل المدايح الشعبية في تهليل وبهجة، ويتبارى مرتلو الألحان في ارتجال مقطوعات شعرية يسمونها "الأرباع" (أي أربعة أبيات)، وتدور معاني هذه القصائد حول المناسبة التي يحتفلون بها، وتدخل فيها ألفاظ أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت تبقى قديما باللغة القبطية، ويدخل فيها أيضًا تفسير الكتاب المقدس وحض على الفضيلة، وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يحزلون العطاء (النقوط) على المرتل (وهو غالبًا ضرير) وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل في ذكر الله ورجاله الأتقياء، وهذه الاجتماعات تعتبر في نفس الوقت وسيلة من وسائل الترفيه الشعبي الروحي.

## المآتم:

وترتبط عادات الحزن والمآتم في العائلات بمظاهر دينية أيضًا، إذ تشيع الجثة إلى الكنيسة حيث تقام صلوات جنائزية استمطارًا لرحمة الله على ما قد يكون المتنقل قد فعله من هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة، وفيها أيضًا طلب التعزية السماوية لأهل الميت، وتقام صلاة خاصة في بيت في اليوم الثالث للوفاة، ولهذه الصلاة أثر كبير في تخفيف وطأة الحزن على أقاربه، ويسميها العامة "رفع الحصير" أي إنهاء

فترة الحزن الشديد التي فيها يجلس أهل البيت والمعزون على الحصير أرضًا بدلا من الجلوس على الأرائك أو المقاعد.

وبعد ذلك تقام القداسات في الكنيسة استمطارًا لرحمة الله في أيام السابع والخامس عشر والأربعين، وتعتبر هذه فرصًا مناسبة للتعبير السليم عن مشاعر الحزن، إذا ما اقترنت بالتأثير الديني الذي يعمل دائمًا على حفظ اتزان المشاعر، فلا يكون فيها إفراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين، كما لا يكون فيها كبت، كما يحدث لدى الذين يفهمون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن، فقد أثبتت أبحاث علم النفس التطبيقي أن كبت مشاعر الحزن للظهور بمظهر التمدن، قد أدى في كثير من الحالات إلى أمراض جسمية ونفسية تظهر آثارها بعد فترة من الزمن.

ولكن للأسف اقترنت أحزان الأقباط خصوصًا عند النساء في الصعيد ببعض العادات الوثنية من لطم مؤذ، وشق للملابس، وحل للشعر، وصبغ بالنيلة، والقرع على الصدر بشدة، وفقد زمام النفس حتى تتمايل الثكلى أحيانًا باهتزازات توقيعية تتمشى مع أنغام التعديد الذي كثيرًا ما يقترن بقرع الرق أو الطبول، وتختلف أقاليم الصعيد في طريقة "التعديد" وهي في الغالب تعديد مآثر الفقيد، ومقدار الخسائر التي لحقت بفقده، إلا أن بعضها ينحرف إلى عبارات الكفر والتذمر، وهذه العادات والأقوال لا تقرها المسيحية، ويحاربها رجال الدين في مواعظهم.

وعندما ترزأ عائلة بفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة إلى مشاركتها في التعزية لتخفيف وطأة الحزن، كما شارك أيضًا في أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة، إذ ترسل كل عائلة (صينية) مأكولات إلى بيت المأتم الذي يكون مشغولا، فلا يتمكن من إعداد الطعام للمعزين.

وعادة زيارة المقابر (الطلعة)– أي الخروج إلى المقابر التي تكون غالبًا خارج القرية أو على مرتفع جاف– من العادات القديمة، وهي من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت في أيام الأعياد، التي يعتاد فيها أفراد العائلة التجمع معًا من بلادهم المتفرقة، وتصطحب هذه الزيارة بعادات أخرى منها السليم ومنها الضار، فتوزع الصدقات والمأكولات على الفقراء، وترفع الصلوات لطلب رحة الله، إلا أنهم كانوا يغالون في ذلك فيبيتون في المقابر ويقيمون عدة أيام ويتمادون في مظاهر الحزن المفرط.

### (ج) العادات

ارتبط المصري بالكنيسة ارتباطًا وثيقًا حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بانطباعات دينية كثيرة، ظهرت آثارها في أفراحه وأتراحه، واحتفالاته وأعياده، ولا غرابة في ذلك فإن للكنيسة معنى اجتماعيًا يشمل حياة الشعب التابع لها.

وكلمة كنيسة معناها جماعة، أي "جماعة المؤمنين"، ويطلق الاسم اصطلاحًا أيضًا على المكان الذي يجتمع فيه المسيحيون مهما كان نوع

هذا المكان، ففي فجر المسيحية، قبل أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات، كان يطلق اسم الكنيسة على البيوت التي يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلاة.

ومن هذا الاسم تميزت الكنيسة بوظيفة اجتماعية وروحية، إذ أن مهمة السمو بروح الإنسان تحتاج إلى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تتعقد أو تنقسم على ذاتها، فتصير شرًا ناميًا في جسم المجتمع، بل تسعى الكنيسة إلى تكوين المواطن الصالح.

ويسهر على توفير هذه الخدمات الرعوية لسد احتياجات الشعب، رعاة الكنيسة وخدامها بدرجاتهم المختلفة: الشماس والقسيس والأسقف، وهي درجات الكهنوت الأساسية في الكنيسة.

والكنيسة بهذا الوضع مجتمع اشتراكي ديمقراطي، تكافأ فيه الفرص الروحيةوالاجتماعية أمام الفقير والغني، الجاهل والمتعلم، الصغير والبالغ، وأبيض البشرة وأسودها، فيتمتع فيه الجميع بفرص العبادة المشتركة فيقف كل هؤلاء خاشعين يعبدون إلهًا واحدًا، ويتعلمون كيفية تطبيق الفضائل في حياتهم اليومية، حتى لا يصبح الدين مظهرًا منفصلا عن الحياة أو المجتمع، بل يصير وسيلة فعالة للمشاركة في العطاء للفقير والمحتاج، والتعاون لخير المجتمع.

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة في مصر منذ أقدم العصور، فضمت مباني الكنيسة بين أسوارها، مؤسسات تقوم بالخدمات

المختلفة، لشعبها من روحية وثقافية واجتماعية، ففي كثير من كنائس قرى الصعيد والوجه البحري، ما زالت تحيط بالكنيسة مباني "الليوان" أو "الإيوان" وهي المضيفة أو قاعة الاجتماعات التي يجتمع فيها الشعب مع رعاته بعد صلوات قداس يوم الأحد فيتشاورون في شئون مجتمعهم، ثم يتناولون معًا ما اعتاد المسيحيون بتسميته "الأغابي" وهي كلمة قبطية معناها محبة، وتستخدم اصطلاحًا بمعنى "وليمة المحبة" إذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن في تناول الأسرار المقدسة في نهاية القداس يخرجون إلى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون معًا الغذاء على مائدة واحدة، وجرت العادة على أن تتناوب عائلات القرية تقديم الغذاء، فيحدد لكل عائلة أسبوع معين من العام، تقدم فيه الغذاء للمصلين ويقوم كبار أعضاء العائلة بأنفسهم على خدمة أفراد الشعب، الفقراء والأغنياء على السواء.

وتظهر قيمة هذه الولائم في الرابطة الأخوية والتقريب بين الطبقات والتقليل من الفوارق الاجتماعية، بجانب ما تقدمه من ضيافة بإطعام أفراد الشعب الذين تبعد بيوتهم عن مكان الكنيسة.

ولكل عضو في الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقة بالكنيسة لإقامة احتفالاته الخاصة من عرس أو مأتم، فهي تخدم احتياجات الشعب عامة، ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لإضافة الغرباء والفقراء.

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة الملحقة بها، وكانت في القرون الأولى للمسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لإعداد الراغبين في العماد وتلقينهم أصول الإيمان المسيحي، ثم أخذت فيما بعد شكل "الكتاتيب"، وكانت تلقن الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية.

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرضى كما جاء في سيرة القديس باخوميوس (القرن الرابع) أنه أنشأ مستشفى في أديرته.

وأجمل مظاهر الرعاية النفسية التي تقدمها الكنيسة لاحتياجات الشعب، تتجلى في وظيفة "سر الاعتراف"، وهو كما سمته المخطوطات القديمة "طب روحاني"، وبلغه العصر الحديث وعلم النفس "صحة نفسية" أو "طب نفسي" سواء الوقائي أو العلاجي، فمعروف أن الفرد محتاج إلى إرشاد وتوجيه وبخاصة خلال الأزمات النفسية، أو عندما تشتد وطأة مشكلات الحياة أو يزداد الشعور بالإثم، فأسلم طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو تفريغ كوامن النفس على يد من يستطيع أن يطمئن النفس ويهدئ من روعها، ويرسم لها طريقًا لتجديد الرجاء أو بعثه.

وتحتاج النفس البشرية أيضًا إلى أن تكون على صلة مستمرة بالله تعالى، لذلك تفتح الكنيسة أبوابها ليشترك الشعب معًا في رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع– يوم الأحد، وقد اعتادت الكنائس القبطية أن ترفع الصلوات في أيام الأصوام أيضًا وبخاصة الأربعاء والجمعة من

كل أسبوع، وكانت الكنائس قديمًا تقدم القداسات يوميًا.

وتشتمل صلوات القداس القبطي على طلبات من أجل الظروف المختلفة التي تمر على الفرد في حياته: من أجل المرضى والمسافرين، والراقدين (أي الأموات) .. وكذلك من أجل سلامة العالم، ولم تغفل أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة تنفيذًا لوصية الكتاب المقدس القائلة (فأطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس، لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار) (١ تي ٢ : ١ – ٢).

ولما كانت مصر بلدًا زراعيًا فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس وماء، ونظمت هذه الصلوات لتتمشى مع الفصول الزراعية.

(أ) ففي فصل البذار (من ١٠ بابة إلى ١٠ طوبة – أي من ٢٠ أكتوبر إلى ١٨ يناير) تصلي قائلة (تفضل يارب الزروع ونبات الحقل في هذه السنة باركها).

(ب) وفي شهور الأهوية والحصاد (من ١١ طوبة إلى ١١ بؤونة – أي من ١٩ يناير إلى ١٨ يونيه) تصلي قائلة (تفضل يارب أهوية السماء وثمرات الأرض في هذه السنة باركها).

(ج) وفي شهور فيضان النيل (من ١٢ بؤونة إلى ٩ بابة – أي من

١٩ يونيه إلى ١٩ أكتوبر) تصلي قائلة (تفضل ياربمياه النهر في هذه السنة باركها – أصعدها كمقدارها، كنعمتك فرح وجه الأرض ليروا حرثها، لتكثر أثمارها، أعدها للزرع والحصاد، ودبر حياتنا كما يليق، بارك إكليل (بدء) السنة بصلاحك، من أجل فقراء شعبك، من أجل الأرملة واليتيم والغريب والضيف، ومن أجلنا نحن الذين نرجوك ونطلب اسمك المقدس، لأن أعين الكل تتطلع إليك، لأنك أنت الذي تعطيهم طعامهم في وقته، اصنع معنا بحسب صلاحك، يا معطيا لكل جسد، املأ قلوبنا فرحًا وبهجة لكي يكون لنا الكفاف في كل شيء، ونزداد في كل حين عملًا صالحًا).

## الأصوام:

القبط شعب يميل إلى التصوف والزهد، فقد اشتهر بكثرة أصوامه إذ يرى الصوم وسيلة لتدريب الإرادة وضبط النفس لكبح الشهوات، والتقليل من قيمة الرغبات المادية حتى لا تضغط على الميول الروحية للنفس، فالصوم يسهل التسامي بها إلى مستوى روحي رفيع.

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام مدة من النهار قد تصل إلى الظهر أو العصر أو المغرب حسب مقدرة كل شخص، يتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم غير حيوانية.

وتطغى روح العبادة على القبط في فترات الصوم، فيكثرون من الصدقات، وتتأثر حياة العائلة كلها، إذ تتغير أساليب حياتهم الرتيبة،

فتجـري العائلـة اسـتعدادات خاصـة لاسـتقبال الصـوم، وحتـى الأطفـال يشعرون أن للبيت جوًا جديدًا يفيد ارتباطًا خاصًا بالدين، وعندما كانت مصـر كلهـا مسـيحية، كانـت آثـار الصـوم تـنعكس علـى الحيـاة التجاريـة والاقتصـادية أيضًـا، فتغلـق محـلات ذبـح اللحـوم وبيعهـا، ويتجـه النشـاط التجاري نحو البقول والزيت وما شاكلها من سلع، وإذ تمتنع الأعراس والولائم، يسود المجتمع جو من التخشع والعبادة.

وأهم وأقدم أصوام القبط هما يوم الأربعاء (لذكرى التشاور للقبض على المسيح) والجمعة (لذكرى صلبه) من كل أسبوع، والصوم الأربعيني لـذكرى الأربعين يومًا وهي التي صامها المسيح، ويسـمى أيضًـا "الصـوم الكبير"، وقد بلغت مدته في وقتنا الحاضر ٥٥ يومًا، والأسبوع الأخير منه يسمى "أسبوع الآلام"، ولهذا الأسبوع تقديس عظيم لدى الشعب لعظم الذكرى التي يحملها، فكانت تتعطل فيه الأعمال ليتفرغ الجميع للصلاة في الكنيسة حيث يتلى معظم الكتاب المقدس، ولصلواته لحن حزين، ويطلق الأقباط على كل يوم من أيام هذا الأسبوع اسمًا يناسب ذكرى خاصة، منها "أربعاء أيوب" الذي اعتاد الناس أن يغتسلوا فيه بالعشب المسمى "رعرع أيوب" لذكرى شفاء أيوب النبي به، وخميس العهد لذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين ليعلمهم التواضع، وفيه أيضًا بدأ معهم عهدًا جديدًا.

وبانتشـار الرهبنـة وكثـرة الزهـد اقتـدى الشـعب بالرهبـان فـي حفـظ أصوام أخرى: كصوم الميلاد استعدادًا لاستقبال بشرى الميلاد وشريعة

العهد الجديد، ويبدأ يوم ١٦ هاتور (٢٥ نوفمبر) وينتهي بعيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك (٧ يناير)، وتبلغ مدته الآن ٤٣ يومًا، وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب بليالي كيهك فيجتمعون في الكنيسة، ويرتلون المدايح والتسابيح ابتهاجًا بذكرى الميلاد. وفي ليالي الأحد من شهر كيهك يسهرون إلى الصباح في ترديد هذه التسابيح، وفي هذه الليالي كانت بعض العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة فتقدم لهم العشاء في المضيفة الملحقة بالكنيسة.

وأيضًا صوم الرسل، ويبدأ الأثنين التالي لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و٤٩ يومًا إذ ينتهي بعيد الرسل في ١٢ يوليو، وكذلك صوم العذراء، ويبدأ في ٧ أغسطس ومدته ١٥ يومًا، وصارت له شهرة شعبية خاصة، وفي أواخر القرن العاشر بدأ الأقباط يصومون صوم نينوي ومدته ثلاثة أيام لذكرى نجاة أهل نينوي (مدينة قديمة بالقرب من الموصل الحالية بالعراق) عن طريق الصوم.

**الأعياد:**

ينتهي كل صوم من الأصوام القبطية بعيد يحتفل به الأقباط بإقامة القداس في صباح يوم العيد ثم يفطرون بتناول المأكولات الدسمة واللحوم والحلوى، بعد أن يكونوا قد وزعوا منها على الجيران والفقراء، وبعد ذلك يتبادلون التهاني معًا في القاعة الملحقة بالكنيسة أو التزاور في البيوت، أما في الثلاثة أعياد الكبرى (الميلاد- الغطاس- القيامة) فيكون الاحتفال بالقداس مساء ليلة العيد، وغالبًا ينتهي بعد منتصف

الليل فتكون له بهجة، وبالأخص في ليلة عيد القيامة حيث اعتاد الشعب قديمًا أن يخرج من الكنيسة ممسكًا بالشموع المضاءة إلى أن يصلوا إلى بيوتهم.

وترتبط بعد الأعياد القبطية بمواسم زراعية خاصة فتدخل في تقاليد الاحتفال بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم، فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء، ومن العادات التي كانت متبعة في عيد الغطاس (ذكرى عماد المسيح)– ويقع في ١٩ يناير– الاستحمام في النهر أو الترع، وكان يوجد في مباني الكنائس القديمة حوض كبير يسمى المغطس في الجانب الأيمن من الجهة الغربية للكنيسة (وما زال موجودًا غير مستعمل في كنائس أبو سيفين وأبو سرجه في مصر القديمة)، كان يملأ بالماء وينزل فيه الشعب ليلة عيد الغطاس.

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبي البهيج، عيد "أحد الشعانين" أو "أحد السعف"، وهو الأحد السابق لأحد القيامة، وفيه يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح إلى أورشليم راكبًا على جحش، ذلك الاستقبال الاحتفالي الذي رفع الشعب فيه سعف النخيل وأغصان الزيتون، ويكرر الأقباط هذه الذكرى بحمل سعف النخيل وأغصان الزيتون إلى الكنائس لحضور قداس العيد، وعادة تحية القادمين بالسعف كانت معروفة في مصر الفرعونية أيضًا.

ومن اليوم التالي لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع الذي يسمى الآن "شم النسيم"، وفيه يخرج الشعب إلى الحقول والحدائق للفرح بجمال

الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك الطويلة السابقة، ويسمى كنسيًا "أثنين الفصح" وكانت تستمر أجازه عيد القيامة طوال الأسبوع الأول من الخامسين.

وإذا ما جاء عيد العنصرة– وهو عيد حلول الروح القدس في نهاية الخماسين– اعتاد القبط توزيع فواكه الموسم الجديدة على الفقراء وذلك لأن يوم الخمسين هذا كان يقابل قديمًا عيد الحصاد فيكون تعبير الشكر بتقديم باكورات هذه الخيرات.

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد كثيرة أخرى، من أهمها عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير، وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول يونيه من كل عام، وبالأخص في الكنائس التي بنيت على الأماكن الأثرية التي زارها مثل مسطرد حيث البئر، وشجرة العذراء بالمطرية، وكنيسة أبو سرجه بمصر القديمة، وقسقام حيث يوجد الدير المحرق، وبه كنيسة أثرية لهذه المناسبة.

ويحتفل القبط بأعياد العذراء ومشاهير القديسين والشهداء والملائكة بعمل نوع خاص من الفطير يوزعونه على الفقراء والجيران، وترجع فكرة الفطير إلى عادة تقديم باكورات محصول القمح كعلامة شكر لله، وقد كان من عادات القبط ألا يذوقوا المحاصيل الجديدة ولا تدخل ثمارها بيوتهم قبل أن يوزعوا منها على الفقراء.

## الموالد:

وكلما اشتهر قديس أو شهيد في منطقة أو مدينة، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه، وعندما يصل القادمون إلى المنطقة بضعة آلاف يضطرون إلى إقامة الخيام حول الكنيسة ليبيتوا فيها، ويقضوا أيام العيد التي تصل غالبًا إلى سبعة أيام.

وقد عرفت أعياد القديسين المزدحمة هذه في العصر العربي قياسا باسم الموالد، وهو اسم لا ينطبق على الواقع، لأن الاحتفال غالبًا يكون بذكرى استشهاد أو موت القديس، وهو اليوم الذي أتم فيه البطل جهاده، ولا يهم الكنيسة يوم الولادة فإنه يوم لا يقترن بشيء من البطولة أو الإعجاز.

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات وإقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتشبه بقدوته الصالحة، ثم بتقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم للكنيسة إلى جانب نحر الذبائح لإطعام الفقراء والمحتاجين، ولكن لكثرة العدد وما تحتاجه هذه الألوف من أماكن للمبيت، ومن مأكولات ونحر للذبائح وبيع لاحتياجات الزوار والنذور وخلافه، انحرفت هذه الاحتفالات من طبيعتها الدينية البسيطة إلى مظاهر مادية تجارية كانت سببًا في تسرب كثير من الشرور الاجتماعية إلى تلك "الموالد" مما لم تقره الكنيسة، لدرجة أن الأنبا شنودة (القرن الرابع) ألقى عظة قوية ندد فيها بتلك الشرور قائلا "جميل جدًا أن يذهب الأنسان إلى مقر الشهيد ليصلي

ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه، ويتناول من الأسرار المقدسة في مخافة المسيح، أما من يذهب ليتسامر ويأكل ويشرب ويلهو، أو بالحري يزني ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والبغي والفساد والإثم، فهذا هو الكافر بعينه.

وبينما البعض في الداخل يرتلون المزامير ويقرأون ويتناولون الأسرار المقدسة، إذ بالآخرين في الخارج يملؤون المكان بأصوات آلات الطبل والزمر "بيتي بيت صلاة يدعي وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" لقد جعلتموه سوقًا لبيع العسل والحلي وغير ذلك، لقد جعلتم الموالد لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم، جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع، فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين، أو يستخلص لنفسه شيئًا من الفائدة نظير أتعابه، حتى الأمور التي لا يمكن أن تحدث للباعة في الأسواق العامة تحدث لهم في موالد الشهداء.

يا للغباء! إذا كنتم تذهبون لمواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتفعلوا كل ما يروق لكم، فأية فائدة لبيوتكم التي في مدنكم أو قراكم؟ يا لعقولكم المغلقة! وإذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رؤوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون إليهن، وإذا كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء فلماذا جعلتم لكم بيوتا؟

هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب، وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجور بدلا من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس سواء كانوا رجالا أو نساء، دعوني أقول لكم بصراحة تامة أن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذرًا قائلين ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء فرصة لتدمير أجسادكم في المقابر التي حولها أو المباني القريبة منها أو في أركانها".

## (د) التقويم القبطي

كانت السنة المصرية القديمة في أول أمرها قمرية، ونستدل على ذلك أن اسم الشهر عندهم "إيد" ويعبر عنه في الرسم بالهلال أو النجم.

وكانت السنة القمرية ٣٦٠ يومًا وظلت في الاستعمال في طقوس العبادة، ثم أخذ المصريون القدماء بنظام السنة الشمسية بالإضافة إلى السنة القمرية وأكملوها بضم خمسة أيام إليها.

وكان اليوم عندهم ينقسم إلى أربع وعشرين ساعة، وهي ١٢ ساعة لليل و١٢ ساعة للنهار، وكانوا يحددون ساعة الليل بوضع النجم، ولهذا وضعوا علامة النجم لتدل على الساعة، وكانت عندهم أجهزة يعرفون بها مواضع النجوم، وقد أثبتوا ذلك في قوائم وجدناها مدونة على سقوف بعض المقابر الملكية، أما في النهار فكانوا يحددون الساعة بحسب طول الظل على أجهزة معدة لقياس الظل.

وكانت الساعة تطول أو تقصر على حسب فصول السنة، ويبدأ النهار عندهم من مطلع الشمس إلى مغيبها، والليل من غروب الشمس إلى مطلعها في اليوم التالي.

ووضع التقويم القبطي على أساس التقويم المصري القديم، أدرك المصريون القدماء ضرورة استخدام سنة مدنية تحتوي على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما يكون إلى السنة الشمسية، وتكونت السنة المصرية من اثنى عشر شهرًا ينقسم كل منها إلى ثلاثين يومًا، ثم زادوا عليها خمسة أيام في آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التي ولدت فيها المعبودات الخمسة التي تتكون منها مجموعة أوزيريس وهي: أوزيريس، وإيزيس، وست، ونفتيس، وحوريس. وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة.

أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة أشهر، وسموا الفصل الأول "الفيضان" والثاني "بذر الحبوب" والثالث "جني المحصول".

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذي تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يوليه إلى أكتوبر، أما أشهر فصل "بذر الحبوب" فهي من نوفمبر إلى فبراير وهي أشهر الشتاء، وأشهر فصل "جني المحصول" من مارس إلى يونيه وتتفق مع فصل الربيع حاليًا.

ويدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذي يهب أرضهم الخصوبة ويجددها كل عام، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التي تأتيهم كل عام، أي حدوث الفيضان.

لم تعتمد السنة المصرية في حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصري على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام، فهي سنة نيلية تعتمد على طبيعة الفيضان وقيمته لدى الشعب الذي تتصل حياته به اتصالا وثيقا، ولم يكن من المهم لديهم أن يأتي الفيضان في نفس اليوم من كل عام، بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتيهم في نفس الوقت تقريبًا.

وليس في الإمكان أن نحدد متى استطاع المصري أن يقيم "حساب السنة المدنية" على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه نشأ في فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك في أثناء عصر حضارة نقادة الثانية، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد.

وحين مضى على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بمدة، كما لاحظوا أن أشهر "بذر الحبوب" التي كانت تقع في الشتاء أخذت تقع في فصل الصيف، وقد نشأ هذا العيب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية بربع يوم تقريبًا ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحح من نفسه بعد مضي ١٤٦٠ سنة شمسية من الحساب بالتقويم، ففي هذه المدة تجمع الفرق وهو ربع يوم في كل سنة فأصبح ٣٦٥ يومًا أي سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة، وبهذا عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية.

ولاحظ المصريون أن سنتهم النيلية التي تبدأ من اليوم الذي يأخذ فيه النيل في الارتفاع وتنتهي بنفس اليوم من العام التالي تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مرة كل عام، كما لاحظوا أن ظهوره يكون في الفجر المبكر قبيل شروق الشمس، ويكون أظهر وألمع نجم في السماء، وفي دوران الأرض حول الشمس تأتي لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم في خط مستقيم مع الأرض والشمس، وقد أطلق المصريون عليه اسمًا مؤنثًا "سبدت" وورد ذكرها في المتون الدينية القديمة أنها "الجالبة للنيل" أي التي تحدث فيضانه، وقدسوا هذا النجم على أنه صورة من صورة إيزيس، وهذا النجم هو الذي نسميه الآن "الشعري اليمانية".

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة "الشعري اليمانية" تعادل تقريبًا دورة الشمس في عام.

وهذا ولم يكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين في أول الأمر، وكانت تنسب الفصول التي تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثاني من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل "بذر الحبوب" وهكذا.

ومنذ الأسرة السادسة والعشرين أي منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريبًا، أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التي اعتادوا إقامتها.

والأسماء كما وصلتنا هي:

**فصل الفيضان:**

١– تحوت.

٢– باؤفي.

٣– أتحير أو حاتحور.

٤– كحوياك.

**فصل بذر الحبوب:**

١– طيبي.

٢– مخير.

٣– فمنوث.

٤– فرموتي.

**فصل جني المحصول:**

١– بخونس

٢– بيني.

٣– إبيفي.

٤– مسوري.

النسيء، وكانت تسمى به الأيام الخمسة المزيدة على السنة أو الشهر الصغير، وهي خمسة أيام، وكل من الأشهر ثلاثون يومًا.

إن المصري القديم هو أول من وضع تقويمًا يرصد الحوادث بمقتضاه، وهو أول من ألف عامًا شمسيًا من اثنى عشر شهرًا كل شهر منها ثلاثون يومًا وأضافوا الشهر الصغير (النسئ) وهو خمسة أيام لكل عام، كما قسم العام إلى فصول.

واحتفل المصريون بيوم "طلوع الشعري اليمانية" وجعلوا منه عيد أول السنة إلى جانب احتفالهم العادي بغرة العام الشعبي (٣٦٥ يومًا)، وأطلقوا على هذا العيد اسم "طلوع سبدت"، ولاحظ المصريون أن عيد "طلوع سبدت" يتأخر عن عيد غرة العام الشعبي بمعدل يوم كل أربعة أعوام، كما لاحظوا اتحاد العيدين مرة كل ١٤٦٠ سنة، وهي دورة "الشعري اليمانية".

وذكر الكاتب الروماني كنسور ينوس أن الشروق الاحترافي للشعري اليمانية حدث في أول توت من سنة ١٣٩ بعد الميلاد، وعلى هذا أمكن تحديد حدوث ظاهرة الشروق الاحتراقي للشعرى اليمانية في سنة ١٣٢١ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨١ق.م

وهكذا عرف المصريون في عصر الدولة القديمة تقسيم العام إلى ٣٦٥ يومًا وسجلت النصوص (بردية إيبرس) ظاهرة الشروق الاحتراقي للشعرى اليمانية في بدء ظهور الأسرة الثانية عشرة، كما سجلت بردية أخرى (اللاهون) هذه الظاهرة في عصر الدولة الوسطى، ويؤكد "إدوارد

مايرِ" أن أول الفترة التي تبدأ بعام ٢٧٨١ ق.م كان التوقيت الشمسي معروفا ومستعملا فيها، فلابد إذن أن يقع بدء استعماله في أول الفترة السابقة أي سنة ٤٢٤١ ق.م.

## قيمة التقويم للمصريين:

لا يزال هذا التقويم منذ عصور ممعنة في القدم دليلا نافعا ودقيقا للطقس وللفصول وللزراعة وللنيل في فيضانه وتحاريقه، ولا يزال المزارعون يراعونه في كل ما يخص البذر والحصاد كما كان يفعل المصري القديم منذ آلاف السنين، ولا زالت تجري على ألسنتنا الأمثال التي تدل على حالة الطقس فنقول: بابة: أدخل وأقفل البوابة، كياك: صباحك مساك، طوبة: أبو البرد والرطوبة، أمشير: أبو الهواء والزعابير، برمهات: اطلع الغيط وهات ... إلخ.

والتقويم الزراعي في مصر لا يزال يتبع التقويم المصري القديم، وإليك مثال ذلك:

## شهر توت:

يزرع فيه البرسيم والشبت والكرنب شتلا والشعير والشتوي والفول، وتظهر الذرة الشامي، وينضج البصل البعلي، ويتوافر الليمون، وينضج الزيتون ويكثر السفرجل والتفاح.

### شهر بابة:

بدء الزراعة الشتوية: يزرع فيه الأرز والكتان والبصل والثوم (بالوجه القبلي) والقمح والبسلة والأنيسون والكمون والشعير، ويجني القطن، ويظهر البطيخ والشمام النيلي والقرع والقنبيط، ويحصد الفول السوداني، كما تكثر فيه الأسماك الصغيرة (البسارية).

### شهر هاتور:

ينتهي فيه جني القطن، وينضج الأرز النيلي، وتقطع الذرة الشامي، ويظهر فيه البرتقال واليوسفي، ويزرع العدس والقرع والكوسة والطماطم.

### شهر كيهك:

يزرع فيه المشمش والبرقوق والخس شتلا، والمقات الصيفي والخبيزة والخضروات الصيفية، ويظهر الفول الأخضر، ويقطع قصب السكر العصير، ويكثر القلقاس.

### شهر طوبة:

تنقل فيه الأشجار الصغيرة، وتقلم كروم العنب، وتزرع الذرة الصيفية والجوز ونوى الخوخ.

### شهر أمشير:

يزرع فيه القطن المبكر (بالوجه القبلي) والذرة العويجة وقصب السكر، وتغرس الأشجار، ويلقح النخل، ويحصد الكمون، ويغرس شجر

التين والتفاح والبرقوق والمشمش، ويظهر الخيار.

### شهر برمهات:

يورق فيه شجر التوت، ويفقس دود القز، وتنضج البسلة البلدي، وابتداء زراعة القطن الهندي، ويقلع فيه الكتان، وتظهر الملوخية، ويزرع الكمون والخضروات.

### شهر برمودة:

يحصد فيه الفول والعدس والترمس والقمح في بعض جهات بالوجه القبلي، ويزرع فيه الفول السوداني، ويقطف أوائل العسل، ويجني الورد لاستخراج مائه، ويظهر البطيخ الصيفي والتوت، ويقلع البطاطس الشتوي، ويزرع فيه الأرز والفلفل شتلا.

### شهر بشنس:

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح، ويحصد البصل بالوجه البحري، ويزرع فيه السمسم والقلقاس.

### شهر بؤونة:

يزرع فيه الأرز والذرة الشامي، ويقطف عسل النحل، وتظهر الفاصوليا والقرع والكوسا، ويظهر العنب والخوخ والكمثرى.

### شهر أبيب:

يزرع فيه الجرجير والكرفس والسلق والبقدونس والباذنجان الأسود

والجوافة والتوت والخرشوف والباميا والملوخية، ويظهر الرمان.

## شهر مسري:

ينضج فيه البلح، ويزرع فيه بصل النرجس والثوم والبصل والطماطم واللفت النيلي، ويكثر فيه العنب والتين، ويجمع الزيتون الأخضر.

## الدولة الرومانية والتقويم المصري:

ألغى يوليوس قيصر استخدام التقويم بالسنة القمرية الذي كان شائعًا في الدولة الرومانية، وأنشأ تقويمًا شمسيًا استعان فيه بالفلكي المصري سوسيجينيس الذي قدر سنة التقويم **٣٦٥** يومًا وربعا.

واستخدم طريقة السنة الكبيسة مرة كل أربعة أعوام، وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم رسميًا في سنة **٧٠٨** من تأسيس روما وهي سنة **٤٦** ق.م وسمي هذا التقويم باليولياني نسبة إلى يوليوس قيصر.

واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة **١٥٨٢** حين لاحظ الفلكيون في عهد بابا روما جريجوريوس الثالث عشر خطأ في الحساب الشمسي وأن الفرق بين السنة المعمول بها والحساب الحقيقي **١١** دقيقة و**١٤** ثانية، وهذا الفرق اليسير يعادل يومًا في كل **١٢٨** عامًا.

وصحح البابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فأصبح يوم **٥** أكتوبر من سنة **١٥٨٢**م يوم **١٥** أكتوبر سنة **١٥٨٢** وهو التقويم المعروف بالجريجوري السائد الآن.

### تطور التقويم المصري إلى القبطي:

حدد المصريون المسيحيون بدء تاريخهم بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذي استشهد فيه الكثير منهم، وذلك بنفس التقويم الذي استخدم في مصر قبل ذلك التاريخ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصري بالتقويم القبطي ويطلق عليه تقويم الشهداء، وهو يتبع الحساب اليولياني، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليولياني والحساب الجريجوري قد بلغ ١٣ يومًا في التقويم القبطي.

### أغراض التقويم القبطي:

للتقويم القبطي غرضان: غرض يتبع الحساب الشمسي، وهدفه إحصاء الأيام والفصول والأعوام الشمسية الكاملة وتحديدها جميعا بالنسبة لدورة الكرة الأرضية حول الشمس، والغرض الآخر يتبع الحساب القمري، وهدفه إحصاء الدورات القمرية وتحديد موعد ظهور كل هلال جديد.

وقد زاد اهتمام المصري بالحساب القمري بعد دخول المسيحية مصر لأن عيد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التي تتصل بعيد القيامة تحدد بالدورة القمرية وتتصل بالدورة الشمسية.

### التقويم القبطي القمري:

حين خطرت فكرة تسجيل الحوادث للإنسان الأول أخذ يؤرخ بظهور القمر وأوجهه، ولما تقدمت العلوم أخذ يبحث في الاختلاف بين

مدة دورة قمرية وبين أخرى، وكذلك في متوسط مدة الدورة القمرية، والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد التالي تسمى شهرًا قمريًا، وقد يتغير طول الشهر القمري حتى يصل الفرق إلى ٩ ساعات تقريبًا، ولكن هناك دورة كاملة لحركة القمر في الفضاء بالنسبة إلينا تبلغ مدتها ١٨,٦ سنة شمسية، كما أن هناك متوسطًا عاما لطول الشهر القمري في الدورة الكاملة وهو ٢٩ يومًا و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة وثلاث ثوان، ويعتبر هذا المتوسط دقيقًا، ويمكن التنبؤ بمقتضاه عن الأهلة الجديدة وأوجه القمر لمدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يومًا كاملا.

ومن هذا نشأت فكرة استخدام طول متوسط الشهر القمري لحساب ظهور القمر الجديد وأوجهه لمئات من السنين، ويسمى ذلك بحساب الأبقطي (ومعناه الحرفي: الباقي) لأن هذا الحساب يشتمل على استعمال الباقي بعد عمليات حسابية متعددة.

وقد بني حساب التقويم القبطي القمري على قاعدة وضعها الفلكي "ميتون" في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي أن كل ١٩ سنة شمسية تعادل ٢٣٥ شهرًا قمريًا كاملا بغير كسور.

واستخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادي، وقد وضع قواعدها المعمول بها إلى الآن البطريرك الإسكندري الأنبا ديمتريوس الكرام وهو البطريرك الثاني عشر وساعده في وضعها الفلكي المصري بطليموس، وبهذا يحدد عيد القيامة (الذي يليه شم النسيم)،

بأنه الأحد التالي للقمر الكامل الذي يلي الاعتدال الربيعي مباشرة.

وقد أخذ الغربيون حساب الأبقطي وطبقوه على التقويم الروماني اليولياني، فاتفقت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطي حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الغربيون تقويمهم بالتعديل الجريجوري.

## الشهور القبطية:

والشهور القبطية كما تعرف الآن هي:

توت (سبتمبر – أكتوبر)

بابة (أكتوبر – نوفمبر)

هاتور (نوفمبر – ديسمبر)

كيهك (ديسمبر – يناير)

طوبة (يناير – فبراير)

أمشير (فبراير – مارس)

برمهات (مارس – أبريل)

برمودة (أبريل – مايو)

بشنس (مايو – يونيه)

بؤونة (يونيه – يوليه)

أبيب (يوليه – أغسطس)

مسرى (أغسطس– سبتمبر)

النسئ (سبتمبر).

## التقويم الأثيوبي:

ومما هو جدير بالذكر أن التقويم الأثيوبي هو نفس التقويم القبطي، فقد أخذ الأثيوبيون تقويمهم عن الأقباط، وتبدأ سنتهم ببدء السنة القبطية، وتتوافق شهورهم مع الشهور القبطية.

ويسمي الأثيوبيون سنتهم بعام الرحمة، وهو التاريخ الذي كان سائدًا في مصر في القرن الحادي عشر، ويسمى بالسنة الميلادية الشرقية أو السنة الميلادية القبطية، وهي تنقص ثماني سنوات تقريبًا عن التقويم الميلادي الغربي.

## (هـ) الرهبنة

### ١- قيامها في مصر:

المصري بطبيعته يميل إلى التدين، وتصبو صفوة المتدينين منهم إلى حياة روحية أعمق، وأصفى سريرة، وأكثر صلة بالله، حياة تتوق إلى الكمال والبر، ومن يصل الحنين الروحي منهم إلى درجة الهيام بالله، يسعى إلى التخلص من المشاغل العالمية والاهتمامات المادية ليتفرغ للخلوة والتأمل.

استمال سحر الصحراء مصر محبي الفضيلة والكمال إليها: فسماؤها الصافية المليئة بالنجوم تنطق بما وراءها من قوة مبدعة مترفقة، وفضاؤها الشاسع يهيئ فرص الحرية المطلقة، وسكونها الشامل يساعد الإنسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه في الله وأن يخلو إليه ويخشع أمامه.

وهكذا اندفع المصريون المسيحيون إلى البرية لمغالبة الشر وللخلوة بالله، وكانوا يهدفون من ذلك إلى أن تسمو أرواحهم وترهف نفوسهم فيستطيعوا التحكم في الجسد وأهوائه، والتحرر من مغريات العالم التي قد تستهوي الإنسان بعيدًا عن خالقه، وتطمس القبس الإلهي الكائن داخله.

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية كجماعات فقراء الهنود والإسينيين اليهود، إلا أن الرهبنة المصرية كانت اتجاهًا مسيحيًا أصيلا، غير متأثر بتلك الحركات النسكية السابقة عليها لاختلافها عنها في الهدف والفلسفة والأسلوب، كما أن الرهبان الأول الذين أسسوا هذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية أو العلمية مما يمكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدونها، بل خرجوا إلى الصحاري بدافع من الروحانية والزهد كما توحي بهما الديانة المسيحية، ويظهر ذلك بوضوح من حياة القديس أنطونيوس.

ومع انتشار المسيحية في مصر بدأت مظاهر النسك تنتشر رويدًا رويدًا، فقد سمع عن شخص يدعى فرومنونيوس

(١٣٨ – ١٦١م) رحـل إلـى بريـة نيتريـا (وادي النطـرون) وفـي صحبته سبعون مسيحيًا ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد.

وأغلب الظن أن الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة، فأصول الرهبنة في مصر بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ أنطونيوس، ولم تكن في بدايتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة، وإنما أخذت وضعها الثابت المعروف وصبغتها العالمية الواسعة النطاق ابتداء من الأنبا أنطونيوس.

## أطوار الرهبنة:

مرت الرهبنة المصرية في أطوار مختلفة.

### ١- التوحد

إذ كانت الرهبنة الانطوائية في عهدها الأول تنطوي على العزلة الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد، ولما كثر أتباع أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطورًا بطيئًا إلى نوع متوسط من الرهبنة الاجتماعية.

## القديس أنطونيوس (٢٥٠ – ٣٥٦م)

هو القديس العظيم الذي يلقبونه "أب جميع الرهبان"، ولد من أسرة غنية في الصعيد، ولما توفى والده تاركًا له ثروة كبيرة تأثر بما جاء في الإنجيل "إذا أردت أن تكون كاملا فأذهب بع كل ما لك وأعطه للفقراء وتعال فاتبعني"، فنفذ الآية حرفيًا ووزع ثروته وتوحد في الصحراء وسكن أولا في مقبرة قديمة وتوغل داخل الفقر، وعاش حوالي عشرين سنة لا

يرى وجه إنسان وهو في نسك وصوم وصلاة وتأمل، ولما اشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم إلى المعيشة مثله، خرج إليهم وأرشدهم إلى حياة الوحدة، وكان تلاميذه لا يعيشون في أديرة بل في مغارات منفردة في الجبل، وقد تتلمذ عليه القديس إيلاري مؤسس الرهبنة في فلسطين، والقديسان آمون ومقاريوس مؤسسا الرهبنة في وادي النطرون، والقديس ببنوده أب أديرة الفيوم، كما تتلمذ عليه البطريرك أثناسيوس وكثير من مؤسسي الرهبنة.

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى، وسمع به الفلاسفة فأتوا إليه يحاورونه ليروا مدى علمه فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان في عرف الكبرياء الرومانية أميا لعدم دراسته اليونانية واللاتينية.

ولما حل بالكنيسة اضطهاد مكسيميانوس نزل أنطونيوس إلى الإسكندرية يخدم المستشهدين ويقويهم مشتهيًا هو نفسه أن يستشهد، كما نول إبان هرطقة أريوس يحذر الناس منها، وكان لظهور هذا الشيخ الناسك المتوحد أثره الكبير في تأييد البطريرك أثنا سيوس.

وقد أرسل إليه الإمبراطور قسطنطين وأولاده رسائل يطلبون فيها بركته فلم يرد عليهم إلا بعد إلحاح رهبانه الذين قال لهم "لا تتعجبوا إن كتب إلينا إمبراطور فهو إنسان، ولكن الأعجب من ذلك أن الله كتب الشريعة للإنسان".

### ٢- الرهبنة الاجتماعية:

أخذ الرهبان المتوحدون في تركيز صفوفهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ليتتلمذوا على أب روحي اشتهر بالقداسة والعلم، مع احتفاظ كل منهم بحياة التوحد في مغارته أو قلايته المنعزلة عن جاره، ولكن قلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها وتقوم حول قلاية الأب الروحي، لذلك يسمى هذا النظام أيضًا بنظام القلالي، وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الانطوائية والرهبنة الديرية، وقاد هذا النظام القديس مقاريوس الكبير، وكان مركزه برية شهيت، أي وادي النطرون بالصحراء الغربية.

**القديس مقاريوس**: هو مؤسس الرهبنة في وادي النطرون في صحراء مصر الغربية، ولد سنة **٣٠٠**م من أبوين مصريين في أحدى قرى محافظة المنوفية، وكان أبوه كاهنًا، وقد رسم هو أيضًا قسًا ولكنه لم يشأ أن يتقلد هذه الرتبة لحبه في حياة الوحدة، فبعد وفاة والديه وزع أمواله على الفقراء وذهب إلى وادي النطرون سنة **٣٣٠**م حيث توحد هناك، ثم زار الأنبا أنطونيوس في الجبل الشرقي فألبسه الزي الرهباني وزوده بنصائحه ورجع إلى وادي النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل، ولم يكن هناك غيرة في كل تلك البرية، وقد عاش الأب مقاريوس ستين سنة في الرهبنة وتجمع حوله تلاميذ كثيرون، فبنى لهم كنيستين في الموضع الحالي لديري البرموس وأنبا مقاريوس بوادي النطرون، ومن أشهر تلاميذه أرسانيوس والأميران مكسيموس ودوماديوس.

والمدرسة الرهبانية التي تزعمها مقاريوس هي نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التي تظهر في رهبنة أنطونيوس، والحياة المشتركة التي تمثلها باخوميوس، فكان الرهبان يعيشون في قلالي منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة كل سبت ليشتركوا معا في الصلاة وتناول الأسرار المقدسة، ولم تكن لهم أسوار ولا حصون، ولكن هذا النظام تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومي، أما من ثبت من اتباع النظام على حب الوحدة فإنهم انفصلوا منفردين في مغارات حفروها في الجبال، وفي سنة ٣٩٠ توفى الأب مقاريوس بعد أن عمر وادي النطرون بآلاف الرهبان، وانقسمت هذه البرية إلى أقسام مشهورة هي نتريا والأسقيط والقلالي، وأصبحت البرية كلها معمورة معروفة.

### ٣- الرهبنة الديرية (حياة الشركة):

ووضع القديس باخوميوس (٢٩٠ – ٣٤٨م) مجموعة قوانين يعيش بمقتضاها الرهبان في دير واحد، هو عبارة عن كنيسة أو كنائس الدير، تحيط بها قلالي الرهبان داخل سور واحد.

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم: الفقر الاختياري – العفة والتبتل – الطاعة للمرشد الروحي، وهي مقومات إنكار الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية.

وكان يشترط على من يريد الانضمام إلى الدير أن يقضي ثلاث سنوات تحت الاختبار، وكان الطعام يقدم للرهبان في قاعة المائدة مرتين في كل يوم (في الظهر وفي المساء) وكانوا يستمعون أثناء الأكل لأحد

الأخوة يقرأ فصلا من الكتب المقدسة، وكانت الأعمال اليدوية في المؤسسات الباخومية إجبارية لفوائدها الروحية التي تشغل الراهب عن الشرود في أفكار لا توافقه، كما أنها وسيلة لكسب القوت الضروري لكي لا يكون الراهب عالة على المجتمع، وكان كل راهب يعمل في المهنة التي يتقنها بجانب من تخصصوا في كتابة الكتب ونسخ المخطوطات.

وكان النظام الباخومي يهتم بالعلم، ولهذا نظم باخوم للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة[1] من النهارللمبتدئين، ودوسًا أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومي الأربعاء والجمعة في تفسير الكتب المقدسة، وكان حضورها إجباريًا.

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى في النظام والحياة الراضية والسلام في وسط عالم منهار ملأه الفزع والفوضى، وشمله القنوط والدمار، ولذلك كان من الطبيعي أن يهرع إليها الناس بالمئات والآلاف في عصر سادته الروح الدينية.

**الأنبا باخوميوس**: ولد حوالي سنة ٢٩٠م في إحدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين، والتحق في شبابه بجيش قسطنطين في حربه لمكسيميانوس، وحدث أن عسكرت فرقته في ضواحي أسنا فخرج أهالي البلدة من المسيحيين يحملون إليهم الطعام والشراب، فذهب باخوميوس

[1] حسب التوقيت الشرقي (أي الساعات السادسة والتاسعة صباحا والثانية عشرة ظهرا بتوقيتنا الحالي).

وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس إلى إبداء هذا العطف، فقيل له أنهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم، فقال في نفسه "إن كانت هذه هي المسيحية فإنني– إن عدت سالمًا– سأصير مسيحيًا"، ولما انتصر قسطنطين وسرح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية واعتنقها.

ثم تتلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون، وازداد في النسك والعرفة حتى صار أبا لكثيرين، وأسس ديره الأول في طيبة واستخدم في تدبيره ما اعتاد من نظام العسكرية ومن طاعة ونسك في الرهبنة.

وكثر عدد المنضمين إليه حتى لم يسعهم الدير، فأنشأ أديرة أخرى وصل عددها إلى تسعة، كما أنشأ ديرًا للرهبات تحت رئاسة أخته، وقد ذكر "بلاديوس" أن رهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف في حياته وأنهم بلغوا سنة ٤٢٠م سبعة آلاف، وقدرهم "كاسيان" بخمسة آلاف راهب، وكانت أديرته تضم غير الأقباط رهبانا من اليونان والرومان والأحباش والسريان، وكان كل هذا العدد الضخم تحت إدارة حكيمة وحازمة، وضع لهم باخوميوس قوانين في العبادة والعمل اليدوي والملبس والمسكن والمأكل وما يلزمهم في معيشتهم الديرية.

واشترط في طالب الرهبنة إن لم يكن يعرف القراءة والكتابة أن يتعلمهما قبل رهبنته ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء، ووضع للرهبان نظاما في الدارسة، وهكذا لم تساعد أديرته على محو الأمية فحسب، بل كانت معاهد للتثقيف، وقد انتشرت قوانين باخوميوس

في أرجاء العالم، ويعتبر هذا القديس مؤسس الحياة الديرية في الرهبنة المسيحية، كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها.

٤- **نظام الأنبا شنودة**: (٣٣٣ – ٤٥١م) بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب من سوهاج وأخميم، أدخل الأنبا شنودة تعديلات على نظام الشركة الباخومي تصطبغ بالشدة والنظام.

نشأ الأنبا شنودة في الصعيد من أسرة غنية، وكان في صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيهم طعامه ويقضي اليوم كله صائما، كما كان ينفرد أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف للصلاة، ولما تنبه والده إلى ذلك دفع به إلى خاله "بيجول" الذي كان رئيسا للدير الأبيض من سنة ٣٥٠م فرسمه راهبا، وظل شنودة الصبي يرتفع في درجات العبادة، ويكثر من الدراسة والتأمل، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعًا، وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيسًا للدير سنة ٣٨٣م ودامت رئاسته للدير ٦٦ عامًا حتى توفى سنة ٤٥١م، وقد قارب المائة والعشرين من العمر.

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالي خمسة آلاف، وكان أيضًا أبًا لألف وثمانمائة راهبة، وقد كتب لهؤلاء الراهبات عددًا وفيرًا من الرسائل تتبين منها تفكيره السليم وتعمقه في الروحيات، واهتم بتثقيف رهبانه حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة، ووضع لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين القديس باخوميوس.

ولكنه كان في زعامته الشعبية يختلف عن باخوميوس في أمرين:

فبينما ضمت أديرة باخوميوس أجناسًا كثيرة اقتصر هو في أديرته على الأقباط، وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة، وبينما كانت كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون إليه في الآحاد والأعياد فيعظهم ويرشدهم، وكان الأنبا شنودة محبًا لشعبه يقاسمهم أتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان، فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء.

وقد كان نشاطه محصورًا في محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبي وبدع الموالد، كما سافر مع القديس كيرلس إلى أفسوس واشترك معه في محاربة هرطقة نسطور.

ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطي، فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه، وكانت كتاباته

عملية صالحة للاستعمال المباشر، وكان كثير الإنتاج مالكا لناصية اللغة، وقد خلف لنا في جهاده الديني والقومي الطويل تراثًا أدبيًا ضخما باللهجة الصعيدية التي لم يكتب أو يخطب إلا بها.

وما أن وصلت الرهبنة إلى هذه الأطوار والأنواع المتعددة حتى كانت الصحاري المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلي على الأخص، قد

امتلأت بالأديرة وقلالي النساك، وامتلأت بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل أن المسافر من الإسكندرية إلى أسوان في القرنين الخامس والسادس لم يكن في حاجة إلى أن يحمل زادًا للطريق، إذ يستطيع أن يتزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالي المنتشرة بكثرة على أطراف وادي النيل وصحراواته الشرقية والغربية.

ومن أهم المناطق التي تركزت فيها جماعات الرهبان:

١- منطقة بسير في الصعيد الأوسط.

٢- منطقة جبل نتريا أو وادي النطرون بالصحراء الغربية.

وكانت تنقسم إلى ثلاثة مراكز رهبانية:

(أ) نتريا.

(ب) الأسقيط.

(ت) القلالي

٣- منطقة مريوط على الساحل الشمالي غربي الإسكندرية.

٤- منطقة البهنسا وهي بالقرب من بني سويف الحالية وكانت تعرف في العصر الروماني باسم أوكسير نخوس.

٥- منطقة أنتينوي بالقرب من ملوي.

٦- منطقة ليكوس بالقرب من أسيوط.

٧- منطقة سوهاج وأخميم (بانو بوليس) حيث أديرة الأنبا شنودة.

٨- منطقة طيبة وهي منطقة واسعة في مديرية قنا حيث انتشرت أديرة باخوميوس.

ولم يبق من هذه العدد الضخم من الأديرة، في وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة قبطية مأهولة بالرهبان، والباقي منها أطلال متروكة يؤمها الشعب في الأعياد لإقامة القداسات، منها أربعة في وادي النطرون وهي: أديرة الراموس – السريان – الأنبا بيشوي – وأبو مقار، وفي جنوب صحراء الفيوم: دير الأنبا صموئيل (القلموني)، وفي جنوبه بالقرب من ديروط: الدير المحرق، أما في الصحراء الشرقية فيوجد دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا، ولليونان الأرثوذكس دير سانت كاترين بالقرب من الطور في شبة جزيرة سيناء.

وبمدينة القاهرة توجد خمسة أديرة للراهبات في مصر القديمة، وحارة زويلة، وحارة الروم.

## آثار الرهبنة:

### ١- التربوية:

عندما أدت الاضطهادات والاضطرابات المتوالية إلى ضعف مدرسة الإسكندرية اللاهوتية في نهاية القرن السادس، انتقلت القوى التربوية في القطر المصري من الإسكندرية إلى الصحراء، فصارت الأديرة مركزًا تربويًا عظيمًا لعلوم الكنيسة.

وقد اعتبرت الأديرة مخازن كنوز العلوم والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية، وهي التي قادت الحركة التربوية في مصر خلال القرون الوسطى، فبجانب البحوث والدراسات التي تركزت داخل الأديرة، فقد عهد أيضًا إلى عدد من الرهبان في إنشاء مدارس أولية (كتاتيب) في قرى وادي النيل لتعليم أبناء الأقباط.

إن الجو الشاعري الذي يحيط بالأديرة، والهدوء الشامل الذي يعيش فيه الرهبان هيأ لهم فرص التأليف والكتابة وبخاصة في العلوم اللاهوتية، وتفسير الكتب المقدسة إلى جانب الخبرات النسكية والروحية التي تعتبر من أعمق الدراسات النفسية.

وكان بكل دير مدرسة لنسخ المخطوطات بجانب جماعات النساخ التي عملت على نشر التراث الثقافي والديني في وقت لم تكن الطباعة قد عرفت فيه.

ويجمل "هرناك" آثار الرهبنة العلمية في عبارة واحدة قائلا "إن الفن والشعر والعلوم قد وجدت في الرهبنة، فمبادئ حضارتنا تعتبر فصلا من تاريخ الرهبنة".

### ٢- الاجتماعية:

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الغور في نفوس الناس، تأثر بها المجتمع القبطي، فسادته موجة من الزهد والتقشف وأخذ يقتدي بالرهبان وينقل عنهم كثيرًا من عاداتهم وأصوامهم، ولما اشتهرت فضائل

الرهبان، وذاع صيتها، اختار الشعب قادته الروحيين من الرهبان، وكانوا في العصور الأولى يحملونهم قسرًا إلى المدن لتولي مناصب الأسقفية والبطريركية، ومن ذلك الحين كثرت الانطباعات الرهبانية في حياة المجتمع القبطي.

أن النماذج الحية للفضيلة والتقوى وإنكار الذات التي تألفت في حياة أولئك الرهبان المصريين كانت من أعظم دليل على أن الفضيلة، ووصايا الدين، أمور واقعية يمكن الوصول إليها، وليست مجرد مثل عليا، أو مبادئ نظرية يتخيلها الدين، الأمر الذي ينصر قوى الخير في المجتمع على قوى الشر، فلا يبتلع اليأس الكثيرين في موجات الانحلال والمادية والإلحاد، بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد في سبيل الفضيلة تشبهًا بهؤلاء العباد، ولعل هذا مما حفظ للمجتمع المصري طابعه الديني على مر العصور.

ثمة ظاهرة اجتماعية أخرى، فالمرضى والرازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون التعزية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالإيمان، وغمر السلام نفوسهم، لذلك كان الشعب يلجأ إلى الرهبان يلتمس منهم تخفيف آلامه بصلواتهم وتعزيتاهم وإرشاداتهم وبقدوتهم التي كان لها أكبر الأثر في تجديد الرجاء لمن يقصدونهم، كما كانت الأديرة أشبه بميناء السلام في أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات، إذ يجد اللاجئون إليها الأمن والدواء والطعام.

وعن ذلك قال "هرناك" المؤرخ الألماني:

"إن النساك المصريين كانوا يعتبرون في جميع العصور- حتى في نظر العرب- آباء، ونماذج للحياة المسيحية الحقيقية".

### ٤- انتشارها في أنحاء العالم المسيحي:

نشأت الرهبنة في مصر ففاح عبير الآباء المصريين في أرجاء العالم، حتى شمله عبيرهم، واجتذب إلى مصر جميع الذين طرق قلوبهم صوت الله، فجاءوا إلى هذا الوادي ليرتووا من نبع تعاليمهم الصافية وليقتدوا بسيرتهم العطرة.

فوفدت إلى الصحاري المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش واليونان والأرمن واللاتين، وسكان شمال أفريقيا وغيرهم، وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جنسه وإرشادهم، وهذا النظام هو الذي ورثته الجامعات في العصور الوسطى حيث انتشر في رحباتها نظام الأمم، وأيضًا نظام الأروقة في الجامعة الأزهرية.

وتعتبر تعاليم الآباء المصريين من أكبر المفاخر التي جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين.

#### ١- في الشرق:

فمن فلسطين جاء القديس "إيلاري" الكبير (هيلاريون) فدرس الفلسفة في مدرسة الإسكندرية ثم تتلمذ للقديس أنطونيوس، فلما رجع إلى فلسطين أسس الأديرة على النمط المصري مستعينًا ببعض الرهبان

المصريين، وقد ابتدأ في براري غزة ومنها انتشرت الرهبنة إلى المنطقة المحيطة بالأردن.

وفي أواخر القرن الرابع جاء "بلاديوس" وزار مصر للمرة الأولى من سنة ٣٨٨ إلى سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبان، برية شهيت لدراسة حياة النسكية ثم عاد إلى بيت لحم، ثم إلى أورشليم ورسم أسقفًا لهلينو بوليس سنة ٤٠٠م.

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر، كتب حوالي سنة ٤٢٠م تاريخًا عما رآه وسمعه من رهبان الأسفيط، واشتهر باسم "بستان الرهبان" وكان هذا الكتاب سببًا لانتشار الرهبنة في جهات كثيرة من العالم.

ومن الذين أسسوا أديرة الموصل وطور عبدين ونصيبين، رهبان مصريون يبلغ عددهم حوالي السبعين ذهبوا من مصر مع راهب سرياني اسمه مار أيون (القديس أوجين) كان قد عاش في الأديرة القبطية بالصعيد.

وانتشرت المسيحية في بقاع كثيرة من الشرق على أيدي المبشرين المصريين، غذتها مصر بمعلمين من مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ثم والت الكنيسة القبطية العناية بها على أيدي الرهبان المصريين، فكانوا هم الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديرة وتوسعوا في نشر المسيحية.

فقد نشروا المسيحية في ليبيا والخمس مدن الغربية (بنتا بوليس)، ويذكر يوسابيوس المؤرخ اسم باسيليوس أحد أساقفتها في أيام

ديونيسيوس الإسكندري، ويستنتج "هرناك" من ذلك ومن وجود عدد من الأبرشيات فيها أن الكنيسة هناك كانت في حالة منظمة في منتصف القرن الثالث.

ويذكر أوسابيوس القيصري تبشير بنتينوس في الهند، ويظهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند قد استمرت طويلًا، إذ يذكر كتاب البطاركة مجئ كاهن هندي إلى مصر في أيام البطريرك سمعان الأول في أواخر القرن السابع يطلب منه سيامة أسقف للهند.

أما عن بلاد العرب فإن هرناك يستند إلى أوسابيوس في تأكيد زيارة أوريجانس للبلاد العربية وقيادته لمجمع في بصري.

أما عن الحبشة، فقد دخلت إليها المسيحية على يد فرومنتيوس في منتصف القرن الرابع الميلادي، وهو مصري كان يتاجر في صور ويجوب البحار شمالًا وجنوبًا، والاسم فرومنتيوس لفظ قبطي معناه رجل الله (افرومي – أنت – تيوس).

وقد اعتنق المسيحية أولا ملك الحبشة وتبعه في ذلك رجال البلاط، ثم أخذت المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب، وكان دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة مخالفًا لما عهدناه في البلاد الأخرى حيث كانت تجد طريقها إلى الشعب أولا ثم يعتنقها رجال البلاط فالملك.

ولما عاد فرومنتيوس إلى مصر، طلب من الأنبا أثناسيوس بطريرك الإسكندرية أن يرسل أسقفًا لرعاية المسيحيين في أثيوبيا، وبعد أن تشاور أثناسيوس مع مجمع الأساقفة الأقباط قرروا سيامة فرومنتيوس نفسه وأرسلوه إلى أكسوم عاصمة الحبشة في ذلك الوقت.

وربما كان بقرارات مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ التي رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة أثر في هجرة كثير من الرهبان إلى مصر حيث وجدوا في أديرتها المزدهرة ملجأ لهم، ومنهم من أخذ في الانتقال إلى النوبة ومنها إلى الحبشة، تدفعهم غيرتهم على نشر الدين المسيحي بحسب مذهبهم، بين أقوام لم يتطرق الجدل الديني إليهم، وقد حدا بهم خوفهم من المذهب النسطوري الذي لم يكن له أتباع في مصر أو الحبشة، إلى ترجمة بعض الكتب في معارضة النسطورية مثل كتاب كيرلس استعدادًا للطوارئ.

وكان بين الرهبان الذين وفدوا إلى الحبشة واستقروا في أماكن متعددة من مقاطعة التيجري تسعة عرفوا "بالقديسين التسعة" هم رسل نشر المسيحية في الحبشة الذين أسسوا الأديرة وثبتوا العقيدة.

وقد أخذت الأديرة في الحبشة تزدهر في القرنين السادس والسابع، وأخذ الرهبان يتفرغون إلى دراسة الرهبنة وتفهمها متعمدين في ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط في مصر.

ومُنـذ القـرن الرابـع والكنيسـة المصـرية ترسـل مطرانًـا قبطيًـا كـرئيس للكنيسة الأثيوبية، وكان له فيها مكانة ممتازة.

## في السودان:

ذكـر المؤرخ يوحنـا الأفسـي إنـه فـي القـرن السـادس كـان البطريـرك القبطـي ثيـودو سـيوس منفيـا فـي القسـطنطينية، وفـي هـذه الأثنـاء أرسـل يوليـانوس إلـى النوبـة لتبشـيرها بالمسـيحية وذلـك بمسـاعدة الإمبراطـورة تيودورة التي كانـت تؤمن بمـذهب الكنيسـة المصـرية، على عكس زوجها الإمبراطور يوستنيانوس الذي كان شديد الاضطهاد لهذا المذهب، فوصل يوليانوس إلى النوبة حوالي ٥٤٣م وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك والعظمـاء فعمـدهم وعلمهـم الكثيـر عـن المسـيحية وحـذرهم مـن أخطـاء مذهب حزب الإمبراطور، فلما وصلت بعثة الإمبراطور بعد ذلك لـم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها في النوبة، فعادت فاشلة.

وتوالـت بعـد ذلـك البعثـات التبشـيرية قادمـة مـن الكنيسـة القبطيـة، وكـان أشـهر المبشـرين الأقبـاط لونجينـوس الـذي خـاطر بحياتـه وسـار فـي رحلـة طويلـة مـع الجبـال المحاذيـة للبحـر الأحمـر حتـى وصـل إلـى مملكـة علوة (عنـد ملتقـى أنهـار العطبـرة والنيـل الأزرق والنيـل الأبـيض وعاصـمتها سوبا قرب الخرطوم الحالية) فبشرها بالمسـيحية فآمنـت بمـذهب الكنيسـة القبطية، وقد حاول الإمبراطور أن يجرهم إلى مذهبه بالقوة فلم يتبعوه.

وقـد ظلـت الكنيسـة المصـرية ترسـل أسـاقفة وكهنـة إلـى النوبـة وعلـوة وكذلك إلى مملكة أخرى تتوسطها اسمها ماكرة (مقره) اتحدت في القرن

السابع مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة.

واستمرت المسيحية في النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك.

(ب) **في الغرب**:

واتسع أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذي وضعه أثناسيوس الرسولي بطريرك الإسكندرية في القرن الرابع عن سيرة الأنبا أنطونيوس وكانت نسخة من هذه السيرة سببًا في تجديد حياة القديس أوغسطينوس (أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس) أسقف مدينة هبو بشمال أفريقيا، وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية، ومن ناحية أخرى حمل أثناسيوس التعاليم الباخومية إلى أوروبا الغربية في رحلتين،.

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن الرابع)- وهو يوناني- إلى مصر وعاش عدة سنين في أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل نظامها، واسترشد بقوانينها في الأديرة التي أسسها بجبل آتوس في بلاد اليونان.

وفي سنة ٤٠٤م قام القديس جيروم (هيرونيموس الإيطالي) بترجمة قوانين باخوميوس إلى اللاتينية، فبادر الرهبان الإيطاليون إلى اتخاذها دستورًا لهم.

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كاسيانوس (الراهب الفرنسي) تراجم الآباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التي وضعوها، وحاول جهده أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما في

جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا)، ثم إن نظام الديرية البندكتية (نسبة إلى القديس بندكت أي المبارك) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس، وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية في أوروبا انتشارًا واسعًا.

كما أثرت تعاليم باخوميوس في حركة الإصلاح الكلوني، تلك الحركة الكبرى التي كان لها أثرها الدائم في توجيه المدنية في العصور الوسطى، كما تلتها الجماعات الرهبانية المعروفة بالديوية، وذلك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وتبعتها في عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان (نسبة للقديس فرانسيس الأسيسي) والدومينكان، فليس من العبث، القول بأن تلك السلسة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها منابعها في وحي باخوميوس المصري، وبالتالي فإن النهضة الأدبية الفكرية الأولى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تلك النهضة التي تقترن بقيام العلوم الإنسانية ونشأة الجامعات في العصور الوسطى إنما هي أثر من آثار تلك الهيئات الديرية التي يرجع تكوينها في الأصل إلى عبقرية باخوميوس.

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط إلى سواحل فرنسا الجنوبية، وإلى بلجيكا حيث يصف "هرناك" كيف عمل الأنبا أثناسيوس وهو في منفاه في بلجيكا على نشر المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك، وفي سويسرا في مدينة زيورخ اشتهر شهداء أقباط ضمن الذين بشروا المدينة كما اشتهر في سويسرا القديس (موريس) وأخته وارينا، وهي التي وجهت اهتمام السويسريات إلى العناية بنظافتهن، وما زالت تصور هناك حاملة

مشطًا (فلاية) وإبريق ماء.

وفي ألمانيا استشهد سنة ٢٦٨م حوالي ثلاثة آلاف من أبناء مصر العليا من فرقة طيبة، ولا تزال قبورهم معروفة في مدينة "ترير".

وفي جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلاتان ديرًا أطلقوا عليه اسم القديس مقاريوسوكان للأقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه على قبرص وردوس، كما ذكر "برمستر" في بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية.

وذكر بتلر في مقدمة كتابه "عن الكنائس القبطية القديمة" إن المبشرين الأقباط وصلوا إلى الجزر البريطانية وأنه يوجد إلى يومنا هذا ببلدة أوليدة ديزرت بإيرلندة قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم في الصلاة بكنيسة تلك الجهة.

# فهرس أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية من عصر ديو قلديانوس إلى دخول العرب

| الأباطرة | الحكام | بطاركة الإسكندرية |
|---|---|---|
| **الأباطرة الرومان** | | |
| ديو قلد يانوس (دقلديانوس) ٢٨٤ - ٣٠٥ | ماركوس أوريليوس بعد أكتوبر سنة ٢٨٤ ديو جينيس قبل مارس سنة ٢٨٦<br>فلافيوس فاليريوس أكتوبر سنة ٢٨٧<br>بمبيانوس ١٥ سبتمبر سنة ٢٨٩<br>إيميليوس روستيكانوس (نائب الحاكم في سنة ٢٩٨<br>إيليليوس بو بوليس ١٩ أغسطس سنة ٢٩٩<br>كلوديوس كولكيانوس ٢٨ فبراير سنة ٣٠٣ و٢٩ مايو سنة ٣٠٦<br>أمونيوس ١٧ أغسطس سنة ٣١٢ | ثيوناس (تاونا) ٢٨٢ — ٣٠٠ |

| | | |
|---|---|---|
| جاليروس (جـــــالاريوس) ٣٠٥ — ٣١١ | | بطرس الأول (خاتم الشهداء) ٣٠٠ — ٣١٠ أرخيلاس (أرشلاوس) ٣١٠ — ٣١١ |
| ماكسيمان (مكسيميانوس) ٣٠٥ — ٣١٣ ليقينيوس (ليسينيوس) ٣١٣ — ٣٢٣ | | الكسندروس الأول ٣١٢ — ٣٢٦ |
| **أباطرة العصر البيزنطي** | | |
| أسرة قسطنطين قسطنطين الأول ٣٢٣ - ٣٣٧ | يوليـوس يوليـانوس ٨ يونيـة سـنة ٣٢٨ سـبتيموس زينـون ٦ أبريـل سـنة ٣٢٩ ماجنينيـانوس ١٩ أبريـل سـنة ٣٣٠ | اثناسيوس الأول (الرسولي) ٣٢٦ — ٣٧٣ |

| | | |
|---|---|---|
| | فلورنتيوس ١١ أبريل سنة ٣٣١<br>هيجينوس ٢ أبريل سنة ٣٣٢<br>باتير يوس ١٥ أبريل سنة ٣٣٣<br>فلافيوس فيلا جريوس ٧ أبريل سنة ٣٣٤ و٣ أبريل سنة ٣٣٧<br>فلافيوس أنطونيوس ثيودور موس سنة ٣٣٧ و٢٨ مارس سنة ٣٣٨ | |
| قسطنطيوس الثاني<br>٣٣٧ – ٣٦١ | فيلافيوس فيلاجريوس سنة ٣٣٨ و٣٠ مارس سنة ٣٤٠<br>لونجينوس ١٩ أبريل سنة ٣٤١ و٢٧ مارس سنة ٣٤٣<br>بلاديوس ١٥ أبريل سنة ٣٤٤<br>نسطوريوس ٧ أبريل سنة ٣٤٥ و١٩ أبريل سنة ٣٥٢<br>سبستيانوس ١١ أبريل سنة ٣٥٣ و٢٧ مارس سنة ٣٥٤<br>ماكسيموس ١٦ أبريل سنة ٢٥٥ و٧ أبريل سنة ٣٥٦<br>كاتافرونيوس ١٠ يونيه سنة | |

| | | |
|---|---|---|
| | ٣٥٦ و٢٣ مارس سنة ٣٥٧<br>هرمــوجينيس بارناســيوس ســنة ٣٥٧ و٤ أبريل سنة ٣٥٩<br>إيتاليكيانوس سنة ٣٥٩<br>فوستينوس سنة ٣٥٩ و٨ أبريل ٣٦١<br>جـيرو نتيـوس سـنة ٣٦١ و٣١ مارس ٣٦٢<br>أكـديكيوس أولمبيـوس يوليـه سـنة ٣٦٢ و١٥ سبتمبر سنة ٣٦٣ | |
| يوليانوس (المرتــد) ٣٦١ – ٣٦٤<br>يوفيانوس (جوفيانوس) ٣٦٣ – ٣٦٤<br>والنس (فالنس) ٣٦٤ – ٣٧٨ | هير يوس ٤ أبريل سنة ٣٦٤<br>ماكسيموس سنة ٣٦٤<br>فلافيانوس سنة ٣٦٤ و٢١ يوليه ٣٦٦<br>بروكوليـانوس بعـد ٢١ يوليـه سـنة ٣٦٦ وأول أبريل سنة ٣٦٧<br>فلافيـوس يوتولمبـوس ١٣ سـبتمبر ســنة ٣٦٧ و٢٩ مــارس ســنة ٣٧٠<br>أوليمبيـوس بلاديـوس سـنة ٣٧٠ | بطــرس الثــاني ٣٧٣ – ٣٨٠ |

| | | |
|---|---|---|
| | و١٧ أبريل سنة ٣٧١<br>إيليـوس بلاديـوس سـنة ٣٧١ و٣٧٤ | |
| **أسرة ثيودوسيوس (تاودو سيوس)** | | |
| ثيود وسيوس الأول (الأكبر)<br>٣٧٩ – ٣٩٥ | هدر يانوس سنة ٣٧٩<br>يوليـوس يوليـانوس ١٧ مـارس ٣٨٠<br>بلاديوس ١٤ مايو سنة ٣٨٢<br>هيبـاتيوس ٢٩ أبريـل سـنة ٣٨٣ و٨ مايو سنة ٣٨٣<br>أنطونيوس سنة ٣٨٣ | تيمو ثاوس الأول<br>٣٨٠ – ٣٨٤ |
| | أوبتاتوس ٣ فبراير سنة ٣٨٤<br>فلورنتيـوس ٢٠ ديسـمبر سـنة ٣٨٤ و١٦ يونيه سنة ٣٨٦<br>يوسيبوس سنة ٣٨٦<br>يولينـوس ٣٠ نـوفمبر سـنة ٣٨٦ وسنة ٣٨٧<br>فلافيـوس أولبيـوس أريتريـوس ٣٠ أبريل سنة ٣٨٨<br>ألكسـندر روس سـنة ٣٨٩ و١٨ | ثيو فيلوس (ثاو فيلس)<br>٣٨٤ – ٤١٢ |

| | | |
|---|---|---|
| | فبراير ٣٩٠<br>أواجريوس سنة ٣٩٠ و١٦ يونيه سنة ٣٩١<br>هيباتيوس ٩ أبريل سنة ٣٩٢ و١٢ أبريل سنة ٣٩٢<br>بوتاميوس ٥ مايو سنة ٣٩٢ و٣٠ يوليه سنة ٣٩٢<br>أواجريوس سنة ٣٩٣ | |
| أركاديوس (أرقاديوس) ٣٩٥ – ٤٠٨ | جيناديوس ٥ فبراير سنة ٣٩٦<br>ريميجيوس من ٢٠ — ٣٠ مارس سنة ٣٩٦<br>أرخيلاوس ١٧ يونيه سنة ٣٩٧ و٢٦ نوفمبر سنة ٣٩٧<br>بنتاديوس ٤٠٣ — ٤٠٤<br>يوثاليوس ٤٠٤ — ٤٠٥ | |

| الأباطرة | الحكام | بطاركة الإسكندرية | |
|---|---|---|---|
| | | أقباط | ملكانيون |
| ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ — ٤٥٠ | أوريستيس سنة ٤١٥<br>كاليستوس ٧ سبتمبر سنة ٤٢٢<br>كليوباترا ٢٩ يناير سنة ٤٣٥<br>خرموسينوس ٢٥ يونيه ٤٤٣ | كيرلس أول (الكبير) ٤١٢ — ٤٤٤ | |
| مرقيانوس ٤٥٠ — ٤٥٧ | ثيودوروس سنة ٤٥١<br>فلوروس ٤٥٢ | ديوسقورس الأول ٤٤٤ — ٤٥٤ | برو تيريوس ٤٥١ — ٤٥٧ |
| **أسرة ليو (لاون)** | | | |
| ليو الأول ٤٥٧ — ٤٧٤<br>ليو الثاني ٤٧٤ | ألكسندر روس ١٩ أغسطس سنة ٤٦٨ وأول سبتمبر سنة ٤٦٩ | تيموثاوس الثاني ٤٥٧ — ٤٦٠ و٤٧٥ — ٤٧٧ | تيموثاوس ٤٦٠ — ٤٧٥ و٤٧٧ — ٤٨٢ |
| زينون (المغتصب) ٤٧٤ — ٤٩١ | بويثوس سنة ٤٧٦<br>انتيميوس سنة ٤٧٧ | بطرس الثالث ٤٧٧ - ٤٨٩ | |

| | | | |
|---|---|---|---|
| | ثيوكتيسـتوس حـوالي ٤٧٧ — ٤٧٨<br>ثيو غنو سطوس سنة ٤٧٩ و٤٨٢<br>برجاميوس سنة ٤٨٢<br>ثيوغنوسـطوس سـنة ٤٧٩ و٤٨٢<br>برجاميوس سنة ٤٨٢<br>ابولو نيوس سنة ٤٨٢<br>ارسينيوس سنة ٤٨٧ | | يوحنا ٤٨٢ |
| | | اثناسيوس الثاني<br>٤٩٠ — ٤٩٦ | |
| انسطاسـيوس أول ٤٩١ — ٥١٨ | يوسطاثيوس سنة ٥٠١<br>ثيودوسيوس سنة ٥١٦ | يوحنـــا الأول ٤٩٦ — ٥٠٥<br>يوحنـا الثـانى ٥٠٥ — ٥١٦ | |
| **أسرة يوستنيانوس** | | | |
| يوســتينوس الأول (يوســـطانيوس) | ديـو سـقوروس حـوالي سـنة ٥٣٥ | ديـو سـقوروس الثاني | بولس التبايسي ٥٣٧ — ٥٣٩ |

| ٥١٨ — ٥٢٧<br>يوستينانوس الأول (يوسـطنيانوس)<br>٥٢٧ — ٥٦٥ | | ٥١٦ — ٥١٧<br>تيمو ثاوس الثالث<br>٥١٧ — ٥٣٥ | |
|---|---|---|---|
| | رودون سنة ٥٣٨<br>ليبر يوس حوالي سنة<br>٥٣٩ — ٥٤٢ | ثيودو سيوس الأول (تاودو سيوس)<br>٥٣٥ — ٥٦٦ | زويلي<br>٥٣٩— ٥٥١ |
| يوستينوس الثاني<br>٥٦٥ — ٥٧٨ | يوحنس لا كساريون<br>سنة ٥٤٢<br>هيفيستوس | | ابو لليناروس<br>٥٥١— ٥٧٠ |
| طيبريوس (طيباريوس)<br>٥٧٨ — ٥٨٢ | | بطرس الرابع ٥٧٦ — ٥٧٨<br>دميانوس<br>٥٧٨ — ٦٠٥ | يوحنا الثاني ٥٧٠ — ٥٨١ |
| موريقيوس (موريسيوس)<br>٥٨٢ — ٦٠٢ | يوحنس<br>بولس<br>يوحنس (للمرة الثانية | | افلو غلوس<br>٥٨١ — ٦٠٧ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| | قسطنطيوس<br>ميناس سنة ٦٠٩ | | |
| فوقاس (فوقا)<br>٦٠٢ — ٦١٠ | بطرس بوستينوس سنة<br>٦٠٢ — ٦٠٣<br>يوحنس سنة ٦٠٩ | انسطاسيوس<br>٦٠٤ — ٦١٦ | تيودوروس<br>٦٠٧ — ٦٠٩<br>يوحنا الثالث<br>٦٩٩ — ٦١٧<br>جيورجيس<br>٦٢١ - ٦٣١ |
| **أسرة هرقل** | | | |
| هرقل الأول<br>٦١٠ — ٦٤١ | نيقيتاس سنة ٦١٠ | اندرو نيكوس<br>(اندرو تيقوس)<br>٦١٦ — ٦٢٣ | |
| | قورقوس ٦٣١ وسنة ٦٤٠ | بنيامين الأول<br>٦٢٣ - ٦٦٢ | |
| هرقل الثاني ٦٤١<br>هرقليون ٦٤١ | ثيودوروس سنة ٤١٦ | | قوروس سنة<br>٦٣١ |





# الفهرس

إهداء ........................................ ٥
مقدمة........................................ ٦
مدخل........................................ ٧
من ديو قلديانوس إلى هرقل (٢٨٤ – ٦٤١) ..................٨
من قسطنطين إلى يوستيانوس (٣٢٣ – ٥١٨) ..................٩
أسرة يوستنيانوس (٥١٨ – ٦١٠)................................ ١٠
هرقل (٦١٠ – ٦٤١) ........................................ ١٦
النظام الإداري والمالي ونظام الجيش والحالة الاقتصادية في مصر في
العصر البيزنطي ........................................ ١٧
الفصل الأَول: الحياة السياسية........................................ ٢٨
الفصل الثاني: الحياة اللغوية........................................ ٦٠
الفصل الثالث: الحياة الفكرية ........................................ ٧٢
الفصل الرابع: الحياة الفنية........................................ ١٢٨
الفصل الخامس: الحياة الاجتماعية........................................ ١٥٦
فهرس أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية من عصر
ديوقلديانوس إلى دخول العرب ........................................ ٢١٧